كتاب رحلة ابن بطوطه

المسماة

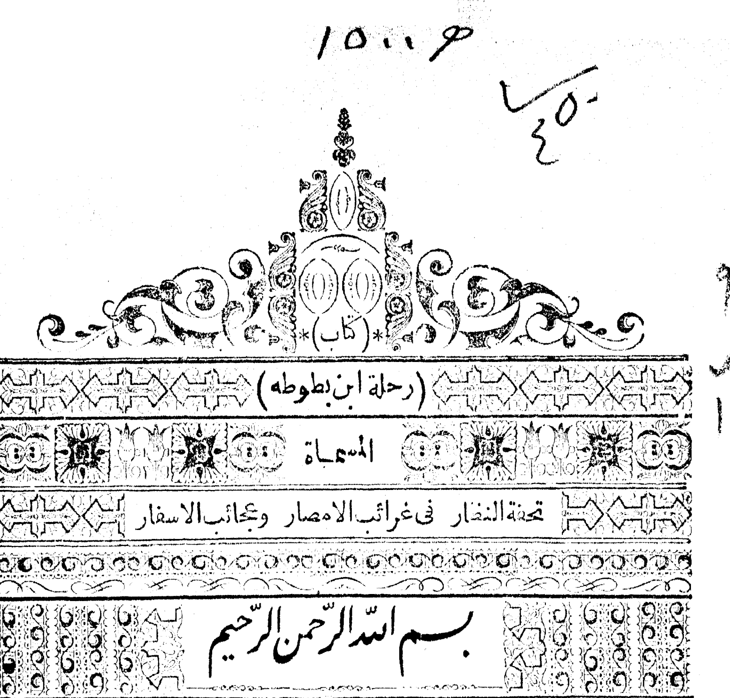
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار

م

(الطبعة الاولى)

بقاعدة حروف مطبعة وادى النيل الجديدة

فى مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة بالموسكى
سنة ١٢٨٧



قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد فى سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى ثم الطنجى المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذى ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد واطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر وجعل القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه الانعام بتذليل مطايا الانعام وتسخير المنشآت كالاعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر اثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا وطلع نور هدايته وهاجا بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الرمم الباليات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا فهم الذين أزروه على جهاد الاعداء وظاهروه على اظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من

الهجرة

الهجرة والنصرة والايواء واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد فى سبيل الله المؤيد بنصر الله أبى عنان فارس ابن موالينا الائمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا وبعد فقد قضت العقول وحكم المعقول والمنقول بأنّ هذه الخلافة العلية المجاهدة المتوكلية الفارسية هى ظل الله الممدود على الانام وحبله الذى به الاعتصام وفى سلك طاعته يجب الانتظام فهى التى أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغى عند استقلالها وشادت مبانى الحق على عمد التقوى واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذى عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذى جر أذياله على مجرة السماء والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه والعدل الذى مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار والبأس الذى فيض غمامه الدم الموار والنصر الذى نفض كتائبه الاجل والتأييد الذى بعض غنائمه الدول والبطش الذى سبق سيفه العذل والاناة التى لا يمل عندها الامل والحزم الذى يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذى يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذى يجنى العفو من ثمر الذنوب والرفق الذى جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذى يجلو نوره دياجى المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ولما كانت حضرته العلية مطمح الامال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع طرفه فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتها الى العدات وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجأ الخائفون الى الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهى القطب الذى عليه مدار العالم وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم وباكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد على بابها السامى وتعدى اوشال البلاد الى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جواب الارض ومخترق الاقاليم بالطول

والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار ايثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي الكلبي أعانه الله على خدمتهم وأوزعه شكر نعمتهم ان يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليتمتع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحي التي اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على انه سلك في اسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ في فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الاغضاء عن تقصيره المأمول فعوائدهم في السماح جميلة ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين

قال

قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته لباعث من النفس شديد العزائم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم فجزمت أمري على هجر الاحباب من الاناث والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزي أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد وتحلت الايام بحلى فضله ورتع الانام في ظل رفقه وعدله الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمه واطفأت نار الكفر جداول صوارمه وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحياء طله وتهتانه وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين وابقى الملك في عقبهم الى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية) وهو أحد الفضلاء ووفاته عام أربعين وفي يوم وصولي الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار علي بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في ابان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولي ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعا على متيجة الى

جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر وكان أمير بجاية اذ ذاك اباعبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ماشاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء منى فأبيت وقلت ان قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لى أما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير خوف غارة العرب فى الطريق ففعلت هذا وأعارنى ماوعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك أول ماظهر لى من الالطاف الالاهية فى تلك الوجهة الحجازية وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها واصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبى الحسن فنظر الى ثيابى وقد لوثها المطر فأمر بغسلها فى داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصر فى أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول مافتح به على فى وجهتى ورحلنا الى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار لاجل الخوف فى الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصابتنى الحمى فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكننى النزول من الخوف الى أن وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدى ولقاء أبي الطيب ابن القاضى أبي عبد الله النفزاوى فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم فوجدت من ذلك فى النفس مالم املك معه سوابق العبرة واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج فاقبل على بالسلام والايناس ومازال يؤنسنى بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين قال ابن جزى أخبرنى شيخى قاضى الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى هو ابن الحاج البلفيقى انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الاندلس فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكماد وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا فى ناحية لا يسلم على أحد فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على

بالسلام

بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت انك غريب فأحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

(ذكر سلطان تونس)

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبو يحيي ابن السلطان أبي زكريا يحيي ابن السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري الخزرجي البلنسي الاصل ثم التونسي هو ابن الغماز ومنهم الخطيب أبو اسحاق ابراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الربعي وولي أيضا قضاء الجماعة في خمس دول ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي ابن قداح الهواري وولي أيضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوايده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فلما أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ووافى السلطان أبو يحيي المذكور راكبا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من بلاد افريقية وأكثره المصامدة فقدموني قاضيا بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الى بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزي في بلدة صفاقس يقول علي ابن حبيب التنوخي (كامل)

سقيا لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محمي القصير الى الخليج * فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى

وفي عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد ابن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها * ولاسقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته * وبات فى البحر يشكو الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلماهم ان يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرا لتوالى نزول الامطار قال ابن جزى فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبى عند تذكارها * جذوة نار بيدى قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحى فى بعض تلك المراحل وفى الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعى أهلى وفى صحبتى جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من اذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الى قصر برصيص العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا فى أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشان الاصيلة البنيان بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها والخريدة تجلى فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا فى عجائبها فأغربوا وحسب المشرف الى ذلك ما سطره أبو عبيد فى كتاب المسالك

(ذكر أبوابها ومرساها)

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب وباب رشيد

وباب

وباب البحر والباب الاخضر وليس يفتح الايوم الجمعه فيخرج الناس منه الى زيارة القبور
ولها المرسى العظيم الشان ولم أر فى مراسى الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد
الهند ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

(ذكر المنار)

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته انه بناء مربع ذاهب
فى الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر
عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل
المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض
المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه
وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر
بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار فى البر الا من المدينة وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة
الاسكندرية وقصدت المنار عند عودى الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته
قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه وكان الملك الناصر
رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

(ذكر عمود السوارى)

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى
وهو متوسط فى غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت
قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا
يتحقق من وضعه قال ابن جزى أخبرنى بعض أشياخى الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية
صعد الى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجمع الغفير
لمشاهدته وطال العجب منه وخفى على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة
فانتج له فعله الوصول الى قصده لغرابة ما أتى به وكيفية احتياله فى صعوده انه رمى بنشابة
قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود
معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامى فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه
حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوثقه من احدى الجهتين فى الارض وتعلق به
صاعدا من الجهة الاخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد
الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية فى عهد وصولى اليها يسمى
بصلاح الدين وكان فيها أيضا فى ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيى بن

أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله ابن ياسين وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصري بها الى اليوم قال ابن جزي من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في أسمى ولدى اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

(ذكر بعض علماء الاسكندرية)

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى امام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

(حكاية) يذكر ان جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا فقعد قريبا من بابها الى ان دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل يا قاضي فقال قاض ان شاء الله ودخل الى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفي قاضي الاسكندرية وبها اذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي انه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر انه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات

(كرامة له) أخبرني بعض الثقاة من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد مستندا الى بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمرا فأكل هو وأصحابه وانصرف عائدا الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامي بالاسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثا

(ذكر كرامة له) دخلت عليه يوما فقال لى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم انى أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين فقال لابد لك ان شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجه الى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ولم أحتج بعد الى انفاقها الى ان سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من افراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

(كرامة لابى الحسن الشاذلى) أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المرسى ان أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب ومابعده الى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير الى بلده فلما كان فى بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فاسا وقفة وحنوطا ومايجهز به الميت فقال له الخديم ولماذا ياسيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ودفن هنالك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا الى الحسن بن على رضى الله عنه

(ذكر حزب البحر المنسوب اليه) كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه فى كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا

(ياالله ياعلى ياعظيم ياحليم ياعليم أنت ربى وعلمك حسبى فنعم الرب ربى ونعم الحسب حسبى تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام الساترة القلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هولك فى الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شئ يامن بيده ملكوت كل شئ كهيعص انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة انك على كل شئ قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا فى سفرنا وخليفة فى أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجئ الينا ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس شاهت الوجوه عم وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان حم حم حم حم حم حم حم حُمّ الامر وجاء النصر فعلينا لاينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الاهو اليه المصير بسم الله بابنا تبارك حيطاننا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين حسبى الله لا اله الاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وبسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم)

(حكاية)

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجل يعرف بالكركى فذهب الى حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالى فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالى ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا اسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكويك وسواهم وأخذا منهم الاموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فأنكر الاميران قوله وقالا انما تريد الثورة على السلطان وقتلاه وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام كونى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدى وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بنى مرشد له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوا فيأتى لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك فى غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطة فيولى ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء المعلوة والراء وواو وجيم مفتوحة) وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم اخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافنى ناظرها زين الدين ابن

الواعظ وسألني عن بلادي وعن مجباه فأخبرته ان مجباه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لي رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع املاكها للبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقها الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الوقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة ان ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الاثيرة (وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بقربة من المدينة يفصل بينهما خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم) والعامة تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الى وعانقني وأحضر طعاما فاكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماما وكذلك لكل ما حضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لي اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لي وما منا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

(كرامة لهذا الشيخ) رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة ثم يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ثم أتاه الامير يلملك فوادعه وانصرف وودعه من كان هنالك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد ان زودهم كعيكات صغارا ثم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق

والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخى دلشاد الهندى
ويخلصك من شدة تقع فيها ثم زودنى كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت ومنذ فارقته لم
ألق فى اسفارى الا خيرا وظهرت على بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولى سيدى محمد
الموله بأرض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهى رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها
حسنة الرؤياء (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين) وأميرها كبير القدر يعرف
بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند وسنذكره وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من
كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة
جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين ورحلت منها الى مدينة
ابيار وهى قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط
اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهى بمقربة من
النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تغلو قيمتها بالشأم والعراق ومصر
وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند
أهلها ولقيت بابيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت
عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء
المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على
الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك
النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضى ومن معه فيقومون
له ويجلسه النقيب فى موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه
أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الى موضع مرتفع
خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه
القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم
الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى
الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم فى كل سنة ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة وهى جليلة
المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضى
القضاة ووالى الولاة وكان قاضى قضاتها أيام وصولى اليها فى فراش المرض ببستان له على
مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين ابن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبى
القاسم بن بنون المالكى التونسى وشرف الدين الدميرى قاضى محلة منوف وأقمنا عنده يوما
وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البراس ونسترو

وهى بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحرى والحوت المعروف بالبورى ومدينتهم تسمى ملطين وهى على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة بحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهى الآن خراب قال ابن جزى (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل فى خليجها (بسيط)

قم فاسقنى والخليج مضطرب * والريح تثنى ذوائب القصب
كأنها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب
والجو فى حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) (والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهمل وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين) وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازى عن أبيه ان قاضى البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى النيل فبينما أسبغ الوضوء وصلى ماشاء الله ان يصلى اذ سمع قائلا يقول (بسيط)

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لاتبالونا

قال فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما رأيت أحدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب (والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبد الله بن على الرشاطى وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطى وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده) ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر فى المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال فى دمياط سورها حلو وكلابها غنم واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن

وبها

وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البوري يحمل منها الى الشأم وبلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحر والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري

(حكاية)

يذكر ان السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي الى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوز تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدي أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الى ولدي وأحب أن تقرأه علي فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدي ان لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته اياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك لحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتتلمذ له وبنى له زاوية حسنة وصحبه أيام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ

قبره وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمه والطاء المهمله) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنه معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الاحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارس كور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذى في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لي ان الامير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الي جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهي على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد ثم وصلت الى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض (رجز)

شاطئ مصر جنة * ما مثلها من بلد
لا سيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها * داود هابها يبرد
سائلة هواؤها * يرعد عاري الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وان بها ثلاثين ألف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

(ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا)

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر ويذكران مجباه ألف دينار كل يوم وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب ومن عوائدهم فى الطعام انه يأتى خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان فى اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم اعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات

الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية ومن عوايدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر ومن عوايدهم مع القادم انه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أى البلاد أتى وبأى الزوايا نزل فى طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتى الى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم ومن عوايدهم انهم اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

(ذكر قرافة مصر ومزاراتها)

ولمصر القرافة العظيمة الشان فى التبرك بها وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون فى كل ليلة جمعة الى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشان حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة فى العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود ومنها تربة الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضى الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز واصبغ

ابن

ابن الفرج وابن عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الا من له بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

(ذكر نيل مصر)

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل وليس في الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماه يما وهو البحر وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا ان النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال خلافا لجميع الانهار ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها ففاضت على المزارع

(ذكر الاهرام والبرابي)

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول

الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمى خنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنا الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منوف وهي على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهى قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر في شأنها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده انه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه انها تفتح من الجانب الشمالي وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فأمر ان يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة وكتب عليها بنينا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصران لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

(ذكر سلطان مصر)

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالالفي لان الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من افعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر وضعف عن المشى في الدربين المصرى والشامي وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن

البناء

البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

(ذكر بعض أمراء مصر)

منهم ساقي الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين بينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة واجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فاخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فأطلقه ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجيم ومنهم بدر الدين بن البابه ومنهم جمال الدين نائب الكرك ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد ومنهم بهادور الحجازي (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون في افعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي وكان نصرانيا من القبط فأسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل ومن عادته ان يجلس عشي النهار في مجلس له بلسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتي بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بان يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

(ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي اليها)

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر

وعزلهم وهو القاضى الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الان متولى ذلك ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الاخنائى ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه انى لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريرى ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الان الا انه كان يدعى بعز الدين

(حكاية)

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله فى ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله ان يحضرها سواه أدام الله أيامه وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الامراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك

(ذكر بعض علماء مصر وأعيانها)

فمنهم شمس الدين الاصبهانى امام الدنيا فى المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القويع التونسى من الائمة فى المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ومنهم برهان الدين الصفاقسى ومنهم قوام الدين الكرمانى وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتى فى المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج

والنزهات

بالنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ومنهم شيخ شيوخ الفقراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائى نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعى مجد الدين بن حرمى ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

(ذكر يوم المحمل بمصر)

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب قضاة القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وامامه الامير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتى القاهرة ومصر والحداة يحدون امامهم ويكون ذلك فى رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذى كان يخصف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهمل وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التى ذكرنا قبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسة وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان

الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ونزلت عنده وأضافنى ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت فى القديم منية لخصيب عامل مصر

(حكاية خصيب)

يذكر ان أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه انه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وان يطرح فى أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشان فخبأها عنده وخاطها فى ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده

(كامل) أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلا كما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شان الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى أن توفى وأورثها عقبه الى ان انقرضوا وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى اليها فخر الدين النويرى المالكى وواليها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فأعلمته بذلك فأمرنى أن لا ابرح وأمر باحضار المكترين للحمامات

وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون ميزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعى وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوايدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة الى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

(حكاية)

أخبرنى أهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به فى النيل لحجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع بأسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب بحاصل ما ثم لقب شهر به وأصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا أتى فقير لمدينة من المدن تصد القاضى بها فيعطيه ما قدر له فكان هذا القاضى اذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم اى لم يبق من المال الحاصل شئ فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافنى بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهى مدينة عظيمة أصلية البنيان عجيبة الشان بها البربى المعروف باسمها وهو مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم فى هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم

الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت فى القديم منية لخصيب عامل مصر

(حكاية خصيب)

يذكر ان أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه انه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وان يطرح فى أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشان فخبأها عنده وخاطها فى ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده

(كامل) أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلا كما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شان الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى أن توفى وأورثها عقبه الى ان انقرضوا وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى اليها فخر الدين النويرى المالكى ووالبها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فأعلمته بذلك فأمرنى أن لا ابرح وأمر باحضار المكترين للحمامات

وكتبت

وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون ميزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعى وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوايدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة الى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

(حكاية)

أخبرنى أهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به فى النيل لحجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيد ايباع بأسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب بحاصل ما ثم لقب شهر به وأصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها فيعطيه ما قدر له فكان هذا القاضى اذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم اى لم يبق من المال الحاصل شئ فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافنى بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهى مدينة عظيمة أصلية البنيان عجيبة الشان بها البربى المعروف باسمها وهو مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم فى هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم

بعض هذه البرابى وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده انه استفاد مابيده من المال من ملازمته لهذه البرابى ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم ان يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور واولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من أخميم الى مدينة هو مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقى الدين ابن السراج ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين

(كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألنى عن قصدى فاخبرته انى أريد حج البيت الحرام على طريق جده فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وانما تحج أول حجة على الدرب الشامى فانصرفت عنه ولم اعمل على كلامه ومضيت فى طريقى حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعا الى مصر ثم الى الشام وكان طريقى فى أول حجاتى على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به ثم سافرت الى مدينة قناوهى صغيرة حسنة الاسواق (واسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهى بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة واسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الاثيرة وهى منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقرا المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى بها جمال الدين ابن السديد والخطيب بها فتح الدين ابن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطى وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الاندلسى له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهى صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الاقصرى وعليه زاوية وسافرت منها الى مدينة ارمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم

مفتوحة

مفتوحة وزن ساكنة وتاء معلوة) وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافنى قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل وزن) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافنى وأكرمنى وكتب الى نوابه باكرامى وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسى وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها الى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفا) وبينها وبين مدينة اسنا مسيرة يوم وليلة فى صحرا ثم جزنا النيل من مدينة ادفوا الى مدينة العطوانى ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) فى صحراء لا عمارة بها الا انها آمنة السبل وفى بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله ابى الحسن الشاذلى وقد ذكرنا كرامته فى اخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به فوجدناه لما اصبحنا ممزقا مأكولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم الالبان الابل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها الملك البجاة وهو يعرف بالحدربى (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشى زعم انه ابن المرتضى ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا فى البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص التى تقدم ذكرها وانحدرنا منها فى النيل وكان اوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهى مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم القى بها من يجب ذكره ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والوارادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل

منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشأم الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به اثر طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شا وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الدار اقاري من خيار الامراء أضافني وأكرمني واباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون في جوازهم على قطيا ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة وهي اول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة ولا سور عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الامير المعظم الجاولي وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها انيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت في احد اركانه صخرة أحد اقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام امر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور ازواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره اهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه الى أبي هريرة قال قال رسول الله

صلى

لى الله عليه وسلم لما أسرى بى الى بيت المقدس مر بى جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل
ل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بى على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان
نا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بى الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه
المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبرى أحد الصلحاء المرضيين
الائمة المشهورين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لى كل من
لقيته من أهل العلم يصححون ان هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم
السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن فى ذلك الا اهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك
فيه ويذكر ان بعض الائمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى
هذه القبور هو قبر ابراهيم فاشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فاشار له اليه ثم
دخل صبى فسأله أيضا فاشار له اليه فقال الفقيه اشهد ان هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك
ثم دخل الى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه
السلام وبشرقى حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهى على تل مرتفع يشرف منه غور الشأم
وعلى قبره بنية حسنة وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط
وهى اجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل
مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفى المسجد بمقربة من
بابه موضع منخفض فى حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا ويقال ان
ابراهيم سجد فى ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده
وساخ فى الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على
عليهما السلام وباعلى القبر واسفله لوحان من الرخام فى احدهما مكتوب منقوش بخط بديع
بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرا وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله
اسوة هذا قبر ام سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه وفى اللوح الآخر منقوش صنعه محمد
ابن أبى سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات (بسيط)

أسكنت من كان فى الاحشاء مسكنه * بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة * بنت الائمة بنت الانجم الزهر
ياقبر ما فيك من دين ومن ورع * ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس فزرت فى طريقى اليه تربة يونس عليه السلام وعليها
بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع النخلة
وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت

المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء فى هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز أمير دمشق

(ذكر المسجد المقدس)

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجدأ كبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث وأمّا الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف فى النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفى المسجد مواضع سواه مسقفة

(ذكر قبة الصخرة)

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار فان النبى صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها احدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

(ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف)

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهى التى

يكذبون

يكذبون عليها و يعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

(ذكر بعض فضلاء القدس)

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاة الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهى ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها فى درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرته وقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر و يؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه

الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن وفى وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها الى مدينة عجلون (وهى بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل وبتنا هنالك ليلة ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى مدينة عكة وهى خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينيه العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لادم عليه السلام وينزل اليها فى درج وكان عليها مسجد بقى منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها الى مدينة صور وهى خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها ارفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه اريد الوضوء فاتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه فى فعله فقال لى ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا اعجب ولا اغرب شأنا منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشمونى المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس ثم سافرت منها الى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبئ على ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله

وسلامه

وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

(حكاية أبى يعقوب يوسف المذكور)

يحكى انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضا شديدا واقام مطروحا بالاسواق فلما برئ من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارساله فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام فى حراسته ستة أشهر فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان يأتى برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره ان يأتى بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استأجرتنى على الحراسة لا على الاكل فأتى الوكيل الى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك وكان قد رأى فى المنام انه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه واجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارا بنفسه فى أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوايدهم فى تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شئ من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتنى به فأتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ويرضى

أصحاب النحاس ويعطى صاحب البيت كفايته وقال له فى آخر الكتاب وان كان ابراهيم ابن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهى احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والاشجار ويكنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمه ولها الاسواق العجيبة والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهى حديثة البناء واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منها بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوايده ان يركب فى كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين ابن مكين من أكابر الرجال ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين ابن النقيب من أعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضى القرمى وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار باعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمى نسبة الى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ثم سافرت الى مدينة حمص وهى مدينة مليحة ارجاؤها مؤنقة واشجارها مورقة وانهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفى وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد

ابن

ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة واحسنهم سيرة ثم سافرت منها الى مدينة حماة احدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمى بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي اذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة قال ابن جزي وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي العماري الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضي الله عنه (طويل)

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مبانى تمنع الواصف الوصفا
يلومونني ان أعصى الصون والنهى * وأطيع الكاس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصا وأشبهها غرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرأها وتسألها العطفا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتي * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصي
بكت رحمة لي ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكي على العاصي

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوى وعن اخلاص
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجرى المدامع طائعا كالعاصي

(رجع) ثم سافر الى مدينة المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزي وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به

(رجع) والمعرة مدينة صغيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي

الله عنهم ولعن مبغضهم و يبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهى حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون و بها يصنع الصابون الاجرى و يجلب الى مصر والشام و يصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدى و يصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن أعجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة و ينادى سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس و بها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها قدرها خطير وذكرها فى كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع فنزهت حصانة ان ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام والاعوام ووسعت الخواص والعوام أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ففنى جميعهم ولم يبق الابناؤها فيا عجبا للبلاد تبقى ويذهب املاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر بأهون شئ ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها فى خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالغدر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها و يعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظماء و يطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متدانى الابراج وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد و بها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التى على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياما ونكص عنها خائبا قال ابن جزى وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة

(طويل)

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالى وجانبها الصعب

يجر عليها الجو اجيب غمامة * ويلبسها عقدا بانجمه الشهب

اذا

اذا ماسرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قدامات بغصة * وذى سطوات قد ابانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منقطفة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضا توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمى عواليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو أنه كان يجرى فى مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن ابى المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * وجلا فما يمسى لديها حاضرا

(رجع) ويقال فى مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض واسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائما فى ظل ممدود وقيسار يتها لا تماثل حسنا وكبرا وهى تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذى لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد فى صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والابنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع واتقان الصنعة تنسب لامراء بنى حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها وهو النهر الذى يمر بحماة ويسمى العاصى وقيل انه سمى بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها وهى من المدن التى تصلح للخلافة قال ابن جزى أطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحترى (كامل)

يا برق أسفر عن فويق مطالبى * حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغه * فى كل ضاحية ومجنى الآس

ارض اذا ما توحشتكم بتذكر * حشدت على فا كثرت ايناسى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب * فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذبها العيش لم يستطب
اذا نشر الزهر اعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * تروق واوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى (خفيف)

حلب للوراد جنة عدن * وهى للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر فى عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق فى أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها ابو الفتيان ابن جيوس (بسيط)

يا صاحبى اذا أعيا كما سقمى * فلقيانى نسيم الريح من حلب
من البلاد التى كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوا العذرى من أربى

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهى * فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى العنسى (خفيف)

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحى من بعدهم فى سياق
حلب انها مقر غرامى * ومرامى وقبلة الاشواق
لك خلاجوشن وبطياس والـ * ـعبد ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سقى المنى بكأس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح * وتثنى غصونها للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت * انجم الافق حولها كالنطاق

رجع وبحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر امراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضى كمال الدين ابن الزملكانى شافعى المذهب عالى الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفى ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها

وكان

وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين ابى عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموى الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة اولها (كامل)

أسفت لفقدك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقد رحلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنورها لألاء
يا سائراً سقى المكارم والعلى * ممن يخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنعم فثم الفضل والنعماء
قاضى القضاة اجل من أيامه * تغنى بها الايتام والفقراء
قاض زكى اصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والابناء
من الاله على بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء
كشف المعمى فهمه وبيانه * فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
يا حاكم الحكام تدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التى * فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت قال ابن حزى وليس كلامه فى هذه القصيدة بذلك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد واليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشى الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله (كامل)

علقتها غيداء حالية العلى * تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة اصيل مدينة حلب (كامل)

تراه اذا ما جئته متهللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لا اذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لا اذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين ابن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين ابن العجمى واقاربه هم كبراء مدينة حلب

ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة
وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهى حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان
ومساجدها فى نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلانى وكانت مدينة قنسرين قديمة
كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها ثم سافرت الى مدينة انطاكية وهى مدينة عظيمة اصلية
وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها
وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصى وبها
قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر
محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا
ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدودب
الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا ثم سافرت الى حصن
بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو
حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهى بلاد كفار الارمن
ووهم رعية للملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع
الثياب الدبيزية وأمير هذا الحصن صارم الدين ابن الشيبانى وله ولد فاضل اسمه علاء الدين
وابن اخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد
المهمل الاول) ويحفظ الطريق الى بلاد الارمن

(حكاية)

شكى الارمن مرة الى الملك الناصر بالامير حسام الدين وزوروا عليه امورا لا تليق فنفذ
أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل
على الملك الناصر وقال ياخوند ان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح للمسلمين
ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم
ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى انفذ امرا ثانيا بسراحه
والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالاقوش وكان لا يبعث الا فى مهم
وامره بالاسراع والجد فى السير فسار من مصر الى حلب فى خمس وهى مسيرة شهر فوجد أمير
حلب قد احضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذى يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد
الى موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضى بغراس شرف الدين الحموى بموضع يقال له العمق
متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى
حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن اميره علاء الدين الكردى وقاضيه شهاب الدين

الارمنتى

الارمنتي من أهل الديار المصرية ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع في رأس شاهق أميره سيف الدين الغنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين ابن شجرة من أصحاب ابن التيمية ثم سافرت الى مدينة صهيون وهي حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمي وقاضيها محيي الدين الحمصي وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان اليا وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم احد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له وان اصيب فهي لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

(حكاية)

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخي الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت اواخي سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للاخذ بثار اخيه وخوفا ان يتجاسروا عليه بما تجاسروا على اخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء ان ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشرين الفا وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا في قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه والقى العمامة في عنق نفسه ونادى الجوار يا امير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطلب اولادي ومالي فقالت له لك ما تحب فانزل في جوارنا ففعل ذلك واتى مهنا فاحسن نزله وحكمه في ماله فقال انما احب اهلي ومالي الذي

تركته بحلب فدعى من ثم باخوته و بني عمه فشاورهم في أمره فمنهم من اجابه الى ما اراده ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما أنا فافعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفي اثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سير واعلى البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الافرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الافرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الافرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى أبي سعيد فلما وصله أمر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأمّا أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

(حكاية أدهم)

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن

يستحل

يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعى لى صاحب المنزل فقالت انه لامرأة فقال استأذنى لى عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهى مسيرة عشر من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترضه السلطان فى موكبه فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا فلما عاد السلطان الى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتى من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت فى تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك الا أن تتزوج بنتى فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فأسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحى من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شئ ويقدم الفقراء المتجردون من الافاق بحضور هذا الموسم وكل من يأتى من الزوار لهذه التربة يعطى لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون ان على بن أبى طالب اله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير

(حكاية)

ذكر لى ان رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميره فيقول له ان الامام المهدى أعطانى هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون

فيضرب ويحبس ثم انه امرهم بتجهيز لقتال المسلمين وان يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم ان يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم انها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال فغدروا بمدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فاخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام الى طرابلس فاتى امير الامراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء والقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الارض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوي وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء احد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

(حكاية)

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه امورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضي جلال الدين ان يتحيل في قتله بوجه شرعي فدعاه القاضي الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد اعد القاضي الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقد اعقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم أخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضي جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد منهم تحت مختنقه ونزعت عمائمهم ومن عادة أمراء تلك البلاد انه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم

من

من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث المأمور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا أيها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقبل الامير شفاعتهم وخلى سبيلهم وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهى من أحسن المراسى بالشام ثم سافرت الى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من افاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من اخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

(حكاية)

اخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء ايام البرد الشديد فاوقدنا نارا عظيمة واحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال احد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به انى كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد احدق الثلج به من كل جانب واظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار قال فقمنا اليه فى خمسة رجال فالفيناه كما وصف لنا فقبضناه واتينا به اصحابنا وذبحناه واشوينا لحمه فى تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس فى سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس

وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبدانى كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها اوانى الخشب وملاعقه التى لانظير لها فى البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها وأخرى فى جوفها الى ان يبلغوا العشرة يخيل لرائيها انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة فى جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها معلقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعا وكان دخولى لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقى الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفه بالشرابشية ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها قال وأما دمشق فهى جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها قد تحلت بازاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بان آوى المسيح عليه السلام وامه منها الى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة فى الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا تكون سواها

او تكن فى السماء فهى عليها * قد أبدت هواءها وهواها

بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادى أشى نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف منها واجاد وتوق

الانفس

الانفس للتطلع على صورتها عاد هذا وان لم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة ولا وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفوها المنوعات ولا أوقات سرورها المنبهات وقد اختص من قال الفيتها كما تصف الالسن وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين قال ابن جزى والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والدى رحمه الله كثيرا ما ينشد فى وصفها هذه الابيات وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى

(طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش او ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضى * ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضا فيها (بسيط)

اما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر * الا يغنيه قرى وشحرور
يا حبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا انها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الاسدى (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم روضها متى ماقد سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد ربع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسام العيون والانف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يا برق هل لك فى احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق بعشق اقلام الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا

واجر بجيرون ذيولك واختصص * مغنى تأزر بالعلى وتسربلا
حيث الحيا الربعي محاول الحبا * والوابل الربعي مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات اوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال أيضا فيها (بسيط)

خيم بجلق بين الكأس والوتر * في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا * دعني فانك عندي من سوى البشر

وقال فيها أيضا (كامل)

أما دمشق فجنة * ينسى بها الوطن الغريب
لله أيام السبوت * بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى * الا محبا أو حبيب
في موطن غنى الحمام * به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه * تختال في فرح وطيب

واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضيرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابي عبد الله

(ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية)

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذي تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثني عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من احدى جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون

من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجدا وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون ان الذى يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رآى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وأكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهى ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محاريب وسواها وهى تقل قبة الرصاص التى امام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرا طايرا والقبة رأسه وهى من أعجب مبانى الدنيا ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له اسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب احداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى قبة عائشة أمّ المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوارى من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى ان فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الاخرى الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك وفى قبلة المسجد

المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيأ وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ انه اول محراب وضع فى الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهى من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهى أيضا من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى ان الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفى الاثر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التى بداخل الصومعة الشرقية التى ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير ان يسألوهم شيأ من ذلك وفى هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلى يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى من احسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

ودور

ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضى الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقى وهو أعظم ابواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة ابواب لها ستة اعمدة طوال وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته اعمدة كالجذوع طوال وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اوانى الزجاج العجيبة وفى الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعيه وسايرها لاصحاب المذاهب يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضى وسائر الشهود مفترقون فى المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها تقلها أعمدة رخام وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات والباب الغربى يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليه فى درج له اعمدة سامية فى الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفى يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاة تعرف بالشميعانية فى وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجرى فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من ابواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة

(ذكر الائمة بهذا المسجد)

وائمته ثلاثة عشر اماما اولهم امام الشافعية وكان فى عهد دخولى اليها امامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية

رضى الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان ادى عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته اقام الصلاة امام مشهد على ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبى بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضى الله عنهم اجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه أبو عمر بن أبى الوليد بن الحاج التجيبى القرطبى الاصل الغرناطى المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع اخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاة الخاتونية وله أيضا خانقاة بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان فى ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف احد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة ائمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من اول النهار الى ثلث الليل كذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

(ذكر المدرسين والمعلمين به)

ولهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرأون القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبى من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين ابن الفركح الشافعى ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصايغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزوينى وجه الى أبى اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من ان يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السخاوى المالكى رحمة الله عليهم أجمعين

(ذكر قضاة دمشق)

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعية بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى واما قاضى المالكية فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ

شيوخ الصوفية والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية واما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة واليه يتحاكم النساء وازواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول اليه واما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين ابن مسلم من خيار القضاة يتصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف

(حكايه)

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون الا ان فى عقله شيأ وكان أهل دمشق يعظمونه اشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بامر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فامر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما انكر على ابن تيمية واحضر العقود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة وقال قاضى القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا اله الا الله فاعاد عليه فاجاب بمثل قوله فامر الملك الناصر بسجنه فسجن اعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ثم ان امه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فامر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وانكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدى والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها ان المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن

(ذكر مدارس دمشق)

اعلم ان للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضى ومن نوابه فخر الدين

١٥٠٠٧٥

القبطى كان والده من كتاب القبط واسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

(حكاية)

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبنى بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه انه يرضى بذلك فلا يناله بسوء فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد وقال قاضى القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضى قضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضى القضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشى التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة اعظمها المدرسة النجمية

(ذكر أبواب دمشق)

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزى لقد احسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله (رجز)

دمشق فى اوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى ابوابها * قد جعلت ثمانيه

(ذكر بعض المشاهد والمزارات بها)

فمنها بالمقبرة التى بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر ام حبيبة بنت ابى سفيان ام المؤمنين وقبر أخيها امير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم اجمعين وقبر أويس القرنى وقبر كعب الاحبار رضى الله عنهما و وجدت فى كتاب المعلم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى ان جماعة من الصحابة صحبهم اويس القرنى من

المدينة

المدينة الى الشام فتوفى فى اثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا فى أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزى ويقال ان أويسا قتل بصفين مع على عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الاشهب

(حكاية فى سبب تسميته بذلك)

يحكى ان الشيخ الولى احمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بقربة من مدينة واسط وكانت بين ولى الله تعالى ابى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان فى احدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخى شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن امرك ياسيدى اتيه به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين ايديهما فأخبر أهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا اشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء وبغربى دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر ابى الدرداء وزوجه ام الدرداء وقبر فضالة ابن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق وعلى أربعة اميال منها قبر سعد بن عبادة رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقرية قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبى صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كريم وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن على عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربى البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبى مسلم الخولانى وقبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الاقدام وهو فى قبلى دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو

مسجد عظيم كثير البركة وله اوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا والاقدام التي ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له هاهنا قبر أخي موسى عليه السلام وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبمقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يعرف أيضا بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

(حكاية)

شاهدت ايام الطاعون الاعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو ان ملك الامراء نائب السلطان ارغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة ايام ولا يطبخ احد بالسوق ما يؤكل نهارا وأكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة ايام متوالية كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على اقدامهم وبايديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وانبيائه وقصدوا مسجد الاقدام واقاموا به في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى الى الفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين الفا في يوم واحد وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال انها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم

(ذكر ارباض دمشق)

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية ارباض فسيحة الساحات دواخلها املح من داخل دمشق لاجل الضيق الذي في سككها وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من اراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

*(

(ذكر قاسيون ومشاهده المباركة)

وقاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية في سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا احمرا وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجتره الى المغارة ويذكر ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء واسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج تقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكران فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين الفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين ارض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من ان يدفن فيها أحد

(ذكر الربوة والقرى التي تواليها)

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وامه عليهما السلام وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ في جهة

ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذوا الجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة واندفع فى الماء حتى يشق مجراه ويخرج من اسفل الربوة وهى مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ماليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب فى طرق شتى فتحار الاعين فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام اعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد وباسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجرى فيها الماء وفى القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبي المزى وكثير سواه من العلماء وهى من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان ينحت بها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة باعجب نظام وازين التئام

(ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوايدهم)

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهنّ وهى اللواتى لا قدرة لاهلهنّ على تجهيزهنّ ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير

(حكاية)

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاوانى فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها فدفع له ما اشترى به

مثل

مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بدله ان يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبر القلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون بجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم في ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده في ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالى ثم اصابتني الحمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما اردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لى أحسب دارى كانها دارك أو دار ابيك أو اخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما اصابني وقد كان ما عندى من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لى جمالا واعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لى تكون لما عسى ان يعتريك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه واضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين ابن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وايثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة ايام فسماه اذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره

وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم في كل يوم أثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع ابدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني امية وسواهما ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعا وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة والقراء يقرأون القرآن بالاصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من ائمة الجامع او مؤذنيه او خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا بالجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ويرفعون اصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة واعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالكسى الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل الناس نحوه ويأتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزأ فاذا اتمت القراءة من القراء بالاصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس اجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضي ومن يليه ثم يؤتى بالتنبول وهم يعظمونه

ويكرمون

ويكرمون من يأتي لهم به فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول الا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي او من يقوم مقامه اوراقا منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها و ينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

(ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها)

سمعت بجامع بني امية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام ابي عبد الله محمد بن اسمٰعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدير مقرئ الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلسا اولها يوم الثلاثا منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين ابي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الاصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغريل بن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ ابي العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيي بن علي بن المسيح بن عمران الربعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين ابي الحسن محمد بن أحمد بن عمر ابن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ وعلي بن ابي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي ومن باب غيرة النسا ووجدهن الى آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين ابي الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الامام جمال الاسلام ابو الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي قراءة عليه وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية ابن يوسف بن أعين السرخسي قراءة عليه وانا اسمع في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال اخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربري قراءة عليه وأنا اسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال اخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين وممن أجازني من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي به ومنهم الشيخ

الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن احمد بن محمد المقدسى ومولده فى ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن احمد بن عبد الرحمن النجدى ومنهم امام الائمة جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبى حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى والشيخ الامام الشريف محيى الدين يحيى بن محمد بن على العلوى ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبى عبد الله بن المعالى الدمشقى ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم ابن فلاح بن محمد الاسكندرى ومنهم الشيخ الامام ولى الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبى عمر المقدسى والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبى الزهراء بن سالم الهكارى والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرانى والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى كل هؤلاء أجازنى اجازة عامة فى سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فأخذت فى الحركة معهم وكان امير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعى الحورانى وحج فى تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغمارى وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر فى الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهى صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهى صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مأربه والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث فى تجارة خديجة وبها مبرك ناقته تدبنى عليه مسجد عظيم ويجتمع اهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزا (زيرا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبه الماء الجارى ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادى يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه فى الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجأون فى النوائب وله لجأ الملك الناصر لانه ولى الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة ايلة لجأ الى الحصن وأقام به اعواما الى ان قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولى الملك فى تلك المدة

بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذى بنا الخانقاة البيبرسية بمقربة من خانقاة سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين ابن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه واوتى به الى الملك الناصر فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التى يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حسيان لا عمارة بها ثم الى وادى بلدح ولا ماء به ثم الى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها اعين ماء كانت تبض بشئ من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم تزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملأ قربته بشئ معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفى وسطها الوادى الاخيضر كانه وادى جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من اولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها وفى الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهى كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ان فى ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم

اودونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون وو يغسلون ثيابهم و يدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد و يستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب امانة واليها ينتهى تجار نصارى الشام لا يتعدونها و يبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون فى غدر خيلهم الوادى المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجالقى ومنه ينزلون هدية وهى حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفى اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

(طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم)

وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر و المنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبى الهاشمى الابطحى محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق رضى الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين ان لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت فى سبيل الله سفرته

(ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة)

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به و وسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفى الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون و ينصرفون يمينا الى وجه أبى بكر الصديق ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب و رأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما وفى الجوفى من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال

انه

انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ويقال أيضا هو قبرها والله أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج يفضي الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الى داره ولا شك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ماسواها وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

(ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم)

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بني عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه واقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربدا لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن ملك بن النجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا اساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في تسقيفه فاقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى اوظلة كظلة موسى والامر اقرب من ذلك قيل وماظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضي الله عنه فلما كانت ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فازال اساطين الخشب وجعل مكانها اساطين اللبن وجعل الاساس حجارة

الى القامة وجعل الابواب ستة منها فى كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال فى باب منها ينبغى ان ايترك هذا للنساء فما رئى فيه حتى لقى الله عز وجل وقال لو زدنا فى هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واراد عمر ان يدخل فى المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصب فى المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبى بن كعب رضى الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتى تغسل رأسى فذهب عمر ليتكلم فقال له أبى دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاى على عاتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها فى المسجد فقال أبى ان عندى من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا ثم رادهما فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحى الله اليه ان كنت تعطى من شئ هو لك فأنت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لى وقد حرمت عليك بناءه قال يارب فاعطه سليمان فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبى الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضى الله عنه أما انى لو لم أجد غيرك أخذت قولك ولكنى أحببت أن أثبت ثم قال للعباس رضى الله عنه والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقى ففعل العباس ذلك ثم قال أما اذ أثبتت لى فهى صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها فى المسجد ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الا جهة الشرق منها وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بنى المحراب وقيل عمر ابن عبد العزيز فى خلافة الوليد ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ فى اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم انى أريد أن أبنى مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعنى فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور مازاده فى ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله ابن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى

منها

منها وعلى ان يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في اربعة اركانه وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان ابن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل عمر للمسجد محرابا ويقال هو اول من احدث المحراب ثم زاد فيه المهدى بن أبي جعفر المنصور وكان أبوه هم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن ابن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول انه ان زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه أبو جعفر بانه انما اراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه انى قد عرفت الذى اردت فاكفف عن دار الشيخ عثمان وأمر أبو جعفر ان يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتكن المصلين من الحر وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتى ذراع فبلغه المهدى الى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها الماء واراد ان يبنى بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان جبريل يشير له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام أشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبنى وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهرا

(ذكر المنبر الكريم)

وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم ألتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميم الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك في الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين في وسطاهن فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن

وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه اراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

(ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولي الى المدينة بهاء الدين ابن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عز الدين الواسطي نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري

(حكاية)

يذكر ان سراج الدين هذا اقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه اراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ثلاث مرات في كل مرة ينهاه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وابناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطي من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

(ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به)

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة

(حكاية)

يذكر ان أبا عبد الله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه بأهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله

فعلقت

فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال انى اخاف الله ولا أخون من ائتمننى على اهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنه وجب نفسه وغشى عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برئ وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

(ذكر المجاورين بالمدينة الشريفه)

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابر محتسب وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها فى سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحمات ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقنى لهب تلك الحجارة واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل بجادى على الارض وأمشى عليه حتى بلغت الرواق وكان فى ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد ابن الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك الازدى وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشى الكفيف ومنهم الشيخ أبو مهدى عيسى بن حزرون المكناسى.

(حكاية)

جاور الشيخ أبو مهدى بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا المتعبد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدى عن الجماعة ورأى طريقا فى الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل الصحابة الى اسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا انه سبقهم فمضوا الى مكه شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فافضى به الى جبل آخر وتاه عن الطريق واجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الى ان ضعف عن المشى واستظل بشجرة امّ غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فاعلمه بحاله فاركبه واوصله الى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه

وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة اخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لى اذكره ان شاء الله
ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى من القراء المحسنين وجاور بمكة فى السنة
المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضى عياض بعد صلاة الظهر وأم فى التراويح بها
ومن المجاورين الفقيه أبو العباس الفأسى مدرس المالكية بها وتزوج بنت الشيخ الصالح
شهاب الدين الزرندى

(حكاية)

يذكر ان أبا العباس الفأسى تكلم يوما مع بعض الناس فانتهى به الكلام الى ان تكلم بعظيمة
ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مرتكبا صعبا عفا الله عنه فقال ان
الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل بن
منصور بن جماز الحسنى فانكر كلامه ويحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة
ويذكر انه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

(ذكر أمير المدينة الشريفة)

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم ان
كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة فى شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة فى
بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فما راعهم الا وابناء مقبل فى جماعة من عبيدهم
ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن
منصور الذى ذكرنا انه نفى أبا العباس الفأسى

(ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة)*

فنها بقيع الغرقد وهو بشرقى المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول
ما يلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله
عنها وهى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وام الزبير بن العوام رضى الله عنه
وامامها قبر امام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة
البناء وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم ابن رسول الله صلى الله
عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله
عنهما وهو المعروف بابى شحمة وبازائه قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وقبر عبد الله بن
ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما وبازائهم روضة يذكر ان قبور أمهات
المؤمنين بها رضى الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقبر الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام وهى قبة ذاهبة فى الهواء بديعة

الاحكام

الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع و رأس الحسن الى رجلى العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل و بالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم الا انها لا يعرف أكثرها وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب رضى الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق النخل و به المسجد الذى اسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مسطبة هو أول موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وفى قبلى المسجد دار كانت لابى أيوب الانصارى رضى الله عنه ويليها دور تنسب لابى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم وبازائه بئر اريس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بعد ان كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال ان الزيت رشح من حجر هنالك للنبى صلى الله عليه وسلم تسليما والى جهة الشمال منه بئر بضاعة وبازائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر رومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما انّ أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو بجوفى المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد رضى الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسى رضى الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا واوقدوا الشمع الكثير و بينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه و بعضهم يذكرون الله و بعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ويجودون بالصدقات

الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل واضافنى بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبنى أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلى بن حجر الاموى

(حكاية)

لما وصلنا الى المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة ذكر لى على بن حجر المذكور انه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع منى واحفظ عنى (طويل)

هنيأ لكم يازائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبى لمن يضحى بطيبة أو يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند فى سنة ثلاث وأربعين فنزل فى جوارى وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند فأمر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فاعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بانزاله واعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار واعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتبا فى كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربى فصحبه على بن الحجر المذكور وواعده على ان يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما أثرا ولا للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه فعرضت قضيته بين يدى الملك فامر ان يخلف له ذلك فبعث اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذى الحليفة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما والمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادى العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفردا ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور الى ان اتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وانجز وعده الكريم

واستأصل

واستأصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل
اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع القليب الذي سحب به
اعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه وجبل الرحمة
الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه
كثيب الرمل ممتد ويزعم اهل تلك البلاد انهم يسمعون هنالك مثل اصوات الطبول في كل ليلة
جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى
متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة
النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه
العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهي برية
يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ يتكون
فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة
وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص
كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك
ويسقونه الناس مخلطا بالسكر والامراء يملأون منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكران
رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاهم اياه
فشربوه سويقا ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن
مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الارض
وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسني النسب وعرب تلك الناحية يقيمون
هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الى عسفان وهي في بسيط
من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضي الله عنه
والمدرج المنسوب الى عثمان ايضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين
جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج وأثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الى علي عليه
السلام ويقال انه احدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد اوهنه الخراب وبه من
شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد
مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه
والخضر الى مكة شرفها الله تعالى ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ
آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين مكة شرفها الله
تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوأ الخليل ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه

وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا من باب بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل فى برود الجمال محفوفة بوفود الرحمان موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا فى القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا اسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهى نائية ويمثلها وهى غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف فى طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر الاهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز فى بصيرة المستبصرين وتبدو فى فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت فى قصدها تجارته وكتبت فى سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

(ذكر مدينة مكة المعظمة)

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو فى جهة منها وفى الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبى قبيس أجياد الاكبر واجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهى جبل وستذكر المناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة بشرقى مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب الزاهر

وبباب

وبباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما اخبر الله فى كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذى زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها ثمرات كل شئ تجبى لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذايذات الطعوم وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الامين ومجاورى بيته العتيق

(ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه)

والمسجد الحرام فى وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب ازيد من أربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقى وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى فى وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على اعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية اربعمائة واحدى وتسعون سارية ماعدا الجصية التى فى دار الندوة المزيدة فى الحرم وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسى حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون وفى جدار البلاط الذى يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربى فيه سوارى جصية وللخليفة المهدى محمد بن الخليفة أبى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه وفى أعلى جدار البلاط الغربى مكتوب أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين اصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته فى سنة سبع وستين ومائة

(ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما)

والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الاسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التى من الركن العراقى الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك

عرض الصفحة التي تقابلهما من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلهما من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بابدع الالصاق واحكمه واشده فلا تغيرها الايام ولاتؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض احد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلال ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب واقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي اثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ياارحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله اعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر اربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف ابدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على اعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان

به مرض فاتا ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

(ذكر الميزاب المبارك)

والميزاب فى أعلى الصفح الذى على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب فى الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستدير سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار

(ذكر الحجر الاسود)

وأما الحجر فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق فى الركن الذى الى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطى لعنه الله كسره وقيل ان الذى كسره سواء ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلى منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ان لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله فى أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيق اليه وفى القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال فى تلك الصفحة البهية وترى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود مبتدأ الطواف وهو أول الاركان التى يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى فى طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقى وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامى وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة الشرق

(ذكر المقام الكريم)

اعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقى موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام

ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقي ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقى والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا ادخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد اتى البيت فطاف به سبعا ثم اتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى امام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك

(ذكر الحجر والمطاف)

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقى وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الاخر عند الركن الشامى وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى احاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة

(ذكر زمزم المباركة)

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة فى وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر وعمق البئر احد عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضى الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال

يسمونها

عونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها
تزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوى على تابوت
سوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من
اة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأهل مكة اذا اصابهم قحط او شدة اخرجوا هذا
صحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوا معه مقام
راهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف
عزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتعمدهم بلطفه ويلى قبة
عباس رضى الله عنه على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية

(ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفه)

ابواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها
اب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم وهو أكبر أبواب
لمسجد ومنه يخرج الى المسعى ويستحب للوافد على مكة ان يدخل المسجد الحرام شرفه الله
ن باب بنى شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين
اقامهما امير المؤمنين المهدى رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما
الى الصفا ومنها باب اجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب
العباس رضى الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبى صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح
على بابين ومنها باب بنى شيبة وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال امام باب الكعبة
الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء
ومنها باب صغير ازاء باب بنى شيبة لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لانه يدخل منه لرباط السدرة
ومنها باب الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث فى الركن الغربى من دار
الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا اليه وهى تقابل الميزاب ومنها باب
صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجامل أبواب
الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس مختلفون فى نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل
عليه السلام والصحيح انه منسوب الى ابراهيم الخوزى من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح
على بابين ومنها باب اجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى اجياد ايضا مفتح على
بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب
البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الى الدقاقين وصوامع المسجد الحرام خمس
احداهنّ على ركن ابى قبيس عند باب الصفا والاخرى على ركن باب بنى شيبة والثالثة على

باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبعقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذى تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسوا الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو وقد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الاقشهرى وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمى الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه وبعقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام مجاورتى بمكة العظيمة وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوى المغربى وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجوانى ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضى الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شئ سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لى أستر على ما رأيت وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم واهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودورها أبواب تفضى الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابى وسواها ومن المشاهد الكريمة بعقربة من المسجد الحرام قبة الوحى وهى فى دار خديجة ام المؤمنين رضى الله عنها بعقربة من باب النبى صلى الله عليه وسلم وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبعقربة منها دار ابى بكر الصديق رضى الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما الى دار أبى بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادى به النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر

(ذكر الصفا والمروة)

ومن باب الصفا الذى هو احد أبواب المسجد الحرام الى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة وبين الصفا والمروة اربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى

المروة

لمروة ثلاث مائة وخمس وعشرون خطوة وللمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير بسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة لتي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الى المروة والميلان الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من أبواب الحرم احداهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والاخرى تقابلها وبين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكورة والآخر في سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة ابن أبي نمي وسنذكره

(ذكر الجبانة المباركة)

وجبانة مكة خارج باب المعلى ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحجون واياه عني الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله (طويل)

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزيرة سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ما عدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين ابي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خرب يقال انه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق

(ذكر بعض المشاهد خارج مكة)

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضا ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضا الابطح وهو يلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بنى كنانة الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الى الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدى (بضم الكاف) وهى باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهى باسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهى بين جلبين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر ويقال انه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى وبقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش قد ثر رسمه يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل الى الحرم ومنه اعتمرت امّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه وامره ان يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه فى كل يوم رغبة فى الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشى فيه حافيا وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبى الطريق فيه أثر دور وبساتين واسواق وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب واوانى الوضوء يملاها خديم ذلك الموضع من أبار الزاهر وهى بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرافقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر

(ذكر الجبال المطيفة بمكة)

فمنها جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وباعلاه مسجد واثر رباط وعمارة

وكان

وكان الملك الظاهر رحمه الله اراد ان يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر ان جبل أبي قبيس هو اول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لانه ادّى الحجر الذى استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال انّ قبر آدم عليه السلام به وفى جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها تعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر واجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتى طريق التنعيم يقال انها الجبال التى وضع عليها الخليل عليه السلام اجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله فى كتابه العزيز وعليها اعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب فى الهواء عالى القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدا الوحى وهو الذى اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى عليه وسلم أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروى ان العشرة كانوا معه وقد روى أيضا ان جبل ثبير اهتز تحته ايضا ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذى آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبما ورد فى الكتاب العزيز وذكر الازرقى فى كتابه ان الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الى يا محمد الى الى فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله الغار واطمأنّ به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا هاهنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يا رسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا واشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتأتى له ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلى امامه ولا يدخله واهل تلك البلاد يقولون انه من كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح قال ابن جزى اخبرنى بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو

ان بداخله مما يلى هذا الشق الذى يدخل منه حجرا كبيرا معترضا فمن دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوى الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذى ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجبذ الى خارج ومن دخل منه مستلقيا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه فى الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار رجع

(حكاية)

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابى احدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقى التوزرى والآخر أبو العباس احمد الاندلسى الوادى آشى انهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبع مائة وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك فى اوان اشتداد الحر وحمى القيظ فلما انفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار اخذا فى الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر واجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسى بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى افضى به الطريق الى اجياد فدخل الى مكة شرفها الله تعالى وقصدنى واعلمنى بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزرى وانقطاعه بالجبل وكان ذلك فى آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادى نخلة وكان اذ ذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه وكان من أمر عبد الله التوزرى انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله واقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد فى نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن وادحجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى ان بدت له دابة فقصد قصدها فوجد خيمة للعرب فلما راءها وقع الى الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حماراله وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كانه قام من قبر

(ذكر أميرى مكة)

وكانت امارة مكة فى عهد دخولى اليها للشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنى الامير أبى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة فى هذا العهد وثقبة وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

(ذكر أهل مكة وفضائلهم)

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم انهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتى الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبى فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر فى الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة فى ذلك قط بل يؤدى ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة فى الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

(ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها)

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام العالم محيى الدين الطبرى وهو فاضل

كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الاخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير فى المواسم المعظمة وخصوصا فى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه تجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضى مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبرى وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لى انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع أبى زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من بلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببنى حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل وأحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة فى جميع أوقاته مستحيي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يردّ من سأله خائبا

(حكاية مباركة)

رأيت أيام مجاورتى بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أردّ من بيتى مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول فى نفسى كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان كان يلبسها فى بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته برؤياى فسر بها وبكى وقال لى تلك الجبة اهداها بعض الصالحين لجدى فانا البسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون فى اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل فى سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت ابدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضى نجم الدين الطبرى فشك فى طلاقها وفارقها

وتزوجها

زوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر واقامت
ده اعواما وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق
ارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة ومن اعلام مكة امام الشافعية
هاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين احمد بن على من كبار أئمة مكة
ضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدان في كل سنة أربعين ألف
بهم وخمسين الفا فيوديها الله عنه وامراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه امامهم
نهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادى الاصل المكى المولد وهو نائب
قاضى نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى والناس يهابونه لسطوته

(حكاية)

كان تقى الدين المصرى محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق فى بعض
سنين ان أتى أمير الحاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده
قال له تقى الدين ان لم تقطعها بحضرتك والاغلب أهل مكة خداملك عليه فاستنقذوه منهم
خلصوه فامر بقطع يده فى حضرته فقطعت وحقدها لتقى الدين ولم يزل يتربص به الدوائر
لا قدرة له عليه لان له حسبا من الاميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى أحدهم
هدية من عمامة او شاشية بحضر الناس تكون جوار المن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى
ريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقى الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين
طاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحب الاقطع وتشكى له ضعف حاله
طلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقى الدين وزجره فاستل خنجرا له يعرف عندهم
الجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبرى شقيق
نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد
لقرشى من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان
الحنبلى ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من
بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه اعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس
رأسه فى البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعى وهو يقول نويت نويت فيصلى
مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر

(ذكر المجاورين بمكة)

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفى المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمنى الشافعى
الشهير باليافعى كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى

سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهد الكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى ابيها حالها فيأمرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما انه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف اقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنتهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من اصحاب الاموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه الى ان توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل نظر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون واهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية واصابتها الجوائح

(حكاية في فضله)

اتى يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الى مرابطها اصابتها الاوجاع وضربت بانفسها الارض

وبرؤسها

برؤسها وارجلها واتصل الخبر بالامير أبى نمى فاتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان فى أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما اصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغمارى من أصحاب أبى الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن على بن فرغوس التلمسانى ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلالة

(حكاية)

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فاعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة رطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فاعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن عيسى بن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملكها وسيذكر أمره فاعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا ووجهه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التى خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته وهى من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشترى له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهما من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطرى خرج عليهم لصوص الهند فى مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا الى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق انهم لا يقتلون أحدا الا فى حين القتال ولا يغرقونه وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند انه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند من تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش واسمه (بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتى اليهم من بغداد فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبى العباس بن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى بمصر واعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن

واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وان معه أمر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسى الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسى وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسى الخلعة الثالثة الامير قبولة الملقب بالملك الكبير وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان امامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بانواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات فى كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه احد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدى الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من دار الملك وبعث له أموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قفجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه ان يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند او يبعث لها سواه من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقادا منه فى الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة ابى ان يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بمحضر الملك

الصالح

الصالح اسماعيل بن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة ألف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها الامرائه واتفقوا على ان يكتب لملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمى ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن بن طوران شاه فأكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلنكى احد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيدا انما جاءكم بالتزوير والخلع التى ساقها انما اشتراها بعدن فينبغى ان تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بأمره ولكنى أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضا صاحب الاخبار فوقع فى نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعدما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجبا من الدخول عليه وزاد فى اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه وكان متى دخل اليه يقوم له وبقى الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة أيام مجاورتى بها حسن المغربى المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما لولى الله تعالى نجم الدين الاصبهانى ايام حياته

(حكاية)

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى فى طوافه بالليل فقيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له ياحسن ان أمك تبكى عليك وهى مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكنى لا قدرة لى على ذلك فقال له نجتمع ههنا فى الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهى ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ما شاء الله ثم خرج وهو فى أثره الى باب المعلى فأمره ان يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشئ مما جرى وأقام عندها نصف شهر وأظن ان بلده مدينة أسفى ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدى انى اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتى وغبت عنه هذه الايام

واحب ان تزدني اليه فقال له نعم وواعدها الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره ان يفعل كفعله في مكة
شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه
ان لا يحدث نجم الدين بشئ مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت
يا حسن في غيبتك فابى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل فاتى معه ليلا
وأتى الرجل على عادته فلما امر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على
فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقي بالحرم موهلا يطوف بالليل والنهار
من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التي بين الصفا
والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منه ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل
من أكل له شيأ وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتى السوق تطاول أهلها باعناقهم
اليه كل منهم يحرص على ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى
احب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك
فاستصحبه معه الى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

(ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم)

فمن عادتهم أن يصلي اول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الامر وصلاته خلف
المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة
على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على
صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها
خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعي صلى بعده امام المالكية
في محراب قبالة الركن اليماني ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر
الاسود والركن اليماني ثم يصلي امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع
بين ايدي الائمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب
فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط
فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيخين كل احد
الى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته ليلا يدخل عليه السهو

(ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة)

وعادتهم في يوم الجمعة ان يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود
والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب اقبل لابسا ثوب
سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه

الوقار

قار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سودا وين يتمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه
ـد القومة فى يده الفرقعة وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له
ون عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك
ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمى
هو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان
ن جانبى المنبر فاذا صعد أوّل درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل
سيف ضربة فى الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب فى الدرج الثانى ضربة ثم فى الثالث
خرى فاذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبل
لكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون
ى أعلى قبة زمزم فى حين واحد فاذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة
لى النبى صلى الله عليه وسلم ويقول فى اثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا
بيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ماوقف
رفة واقف ويرضى عن الخلفاء الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمى النبى صلى الله عليه
سلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان
لمجاهد نور الدين على بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول ثم يدعو
سيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو اصغر الاخوين ويقدم
سمه لعدله وأسد الدين رميثة ابنى ابى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق
رة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة
امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

(ذكر عادتهم فى استهلال الشهور)

عادتهم فى ذلك ان يأتى امير مكة فى اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض
معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر
يشرع فى طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعند ما يكمل الامير شوطا
احدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك
صوته ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا فى السبعة أشواط فاذا فرغ
منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل
ذا اراد سفرا واذا قدم من سفر أيضا

(ذكر عادتهم في شهر رجب)

واذا اهل هلال رجب امر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج في اوّل يوم منه راكبا ومعه اهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما اولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلى واحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشدّاد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القوّاد وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويسيرون حتى ينتهون الى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والموذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعوله عند كل شوط على ماذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقوّاد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك

(ذكر عمرة رجب)

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلا ونهارا واوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا اول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل امام الهوادج والجبال تجيب بصداها اهلال المهلين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شئ من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات في هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من اكمة امام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضي الله عنه والاصل في هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبد الله مذكورا اهدى فيه بدنا كثيرة

وأهدى

واهدى اشراف مكة واهل الاستطاعة منهم واقاموا اياما يطعمون و يطعمون شكرا الله تعالى على ماوهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كان عليها فى أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة و ردّها الى بنائها فى عهد قريش وكانوا قد اقتصروا فى بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة ابو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا امير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم ان يغيره فعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب و يجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة و يرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شظف من العيش و يذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة اجدبت بلادهم و وقع الموت فى مواشيهم ومتى اوصلوا الميرة اخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت اموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وادركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التى يسكنها بجيلة و زهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات واهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطى ايديهم مؤمنين على ادعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكران النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم واثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمانى والحكمة يمانية وذكران عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم عجيب كله وقد جاء فى أثر زاحموهم فى الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

(ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان)

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار و يجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل و يقابل ذلك ضوء القمر يتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرأون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا

وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

(ذكر عاداتهم فى شهر رمضان المعظم)

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلى بجماعة فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر منفردا والشافعية اكثر الائمة اجتهادا وعادتهم انهم اذا اكملوا التراويح المعتادة وهى عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا انها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة كأنّ ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلى ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة اخرى ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيأ واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون فى سائر الصوامع فاذا تكلم احد منهم اجابه صاحبه وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان واجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضى والفقهاء والكبراء ويكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فاطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر واعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشى الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدئ قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة فى الليلة التى قبلها وفى تلك الساعة

يمسك

يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام فى تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

(ذكر عادتهم فى شوال)

وعادتهم فى شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات ان يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى باعلى أبى قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح اخذوا فى أهبة العيد ولبسوا احسن ثيابهم وبادروا الاخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه ويكون أوّل من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدّسة ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه الى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولاخيه كما ذكر ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة امامه وهو لابس السواد فيصلى خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

(ذكر احرام الكعبة)

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر استار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدى ان تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة

(ذكر شعائر الحج واعماله)

واذا كان فى أوّل يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات وبكرة وعشية اشعارا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب أثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وامراء مصر والشام

والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في ايقاد الشمع ولكن الفضل في ذلك لاهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون في طريقهم بوادى محسر ويهرولون فيه وذلك سنة ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال ولعرفة ثلاثة اسماء وهي عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيرا من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى ان يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الاراك وبه اراك أخضر يمتد في الارض امتدادا طويلا واذا حان وقت النفر اشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى

بعد

بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر فى ذلك واسع ولما انتهى الناس الى منى بادروا لرمى جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شئ الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما رموها توجه أكثر الناس بعد ان ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثانى وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعد ان كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

(ذكر كسوة الكعبة)

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت فى سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون فى اسبالها على الكعبة الشريفة وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفى سائر جهاتها طرز مكتوبة بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت اذيالها صونا عن أيدى الناس والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والائمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة وفى هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى اربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه فى الحرم من المجاورين او المكيين اعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا واكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفى هذه السنة ذكر اسم السلطان ابى سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

(ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى)

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت عن مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويج بحائين مهملين) وهو من أهل الموصل وكان يلى امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى فى صحبة الامير البهلوان المذكور اكترى لى شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلنى فى جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصى عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفى هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت واطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها فى الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذى هو آية فى النداء والفضل أمير المسلمين ابى سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين ابى يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وابقى الملك فى عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع) وفى هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادى السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم احداهما بعد الصبح والاخرى بالعشى ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية واقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها فى الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمنا نسيمة الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة

وهى

وهى مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو
وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة معتدل فى كل فصل ثم رحلنا من
القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء فى الجفار ثم رحلنا ونزلنا
بسميرة وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير فى أبار الا أنه زعاق
ويأتى عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام
ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو فى بيداء من الارض وفى أعلاه
نقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادى الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن
فيد وهو حصن كبير فى بسيط من الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب
يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من
العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد
ومنه الى الكوفة مسيرة اثنى عشر يوم فى طريق سهل به المياه فى المصانع ومن عادة الركب
ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا
لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميرى العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء
واهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الامير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم
من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال
والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالاجفر ويشتهر
باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زرود وهى بسيط من
الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك ابار ماء ليست بالعذبة
ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه فى درج وبه من ماء المطر
ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن
ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على
الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكر ان هذا المرجوم كان رافضيا
فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السنة من الاتراك مشاجرة فسب بعض
الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى
ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه
الطريق التى بين مكة وبغداد فهى من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا عنايتها
بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء
العذب الصافى وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا

يعرف بالتنانير وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وابار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهنئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي اظهر الله فيها دين الاسلام واذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق واكثرها ناسا واتقنها بناء ولها اسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

(ذكر الروضة والقبور التي بها)

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان

العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوّة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شئ وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتبها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم ان بها قبر علي رضي الله عنه فمنها ان في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه او ثلثاه او نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من اصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدّة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برئ ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به الى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال ما لا يضبط لكثرته

(ذكر نقيب الاشراف)

ونقيب الاشراف مقدّم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب الامراء الكبار في سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا واليه

حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين بن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسينى المدنى

(حكاية)

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاووس فاتفق أهل العراق على تولية أبى غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبى سعيد فأمضاه ونفذ له اليرليغ وهو الظهير بذلك وبعث له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف فى الاموال تصرفا قبيحا فرفع أمره الى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضى بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر على بن موسى قدم هراة وهى آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه انه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاز وادى السند المعروف بپنج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا ان التتر أتوا للاغارة عليهم واجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب فى عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلايع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر انه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا فى السفر وأما فى حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق

فان

فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره الى ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل فى نفسه ثم خرج الامير الى حضرة الملك وكان الامير كشلي خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه قد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف فى ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان فى موكبه فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذى جاء به فأخبره ومضى السلطان حتى لقى الامير كشلي خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة اباد وتسمى أيضا بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) وتسمى أيضا بالدويجر (ديوكير) وهى على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك فلما شرع فى السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهى نفقته بالطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهى نفقته حتى نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هى عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعو بخواجه جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وبه يدعوه سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمى الملك أحدا باسم مضاف الى الملك من عماد أو ثقة أو قطب أو باسم مضاف الى الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فتأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وأمره أن تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة فى الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فاقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم اراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو شديد فى الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم فى السراح فأراد الفرار من طريق الساحل فرد منه وقدم الحضرة ورغب من الوزير ان يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فأتى بها فى بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه ان يتصل لاحد من اصحابه شئ منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع

فى جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره الى ان توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه واوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ولو بلغ ما عسى ان يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من اصحابه حتى يأتى مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدّة وبها تزوج بنت الشريف أبى عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلى بناره خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما فى كفالة ربيبهما الشريف الفاضل ابى عبد الله محمد بن أبى القاسم بن نفيس الحسينى الكربلائى الشهير ببلاد المغرب بالعراقى وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيرا

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت الى بصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر فى تلك الاقطار الا فى صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن درّاج الخفاجى وخرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

(مدينة واسط)

وهى حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتى أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاث مائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون

لتعلم

عابدا كبير القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ثم لا يرى الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن الا طلابه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجئت مسجدا خربا فوجدته يصلي فيه فجلست الى جانبه فأوجز في صلاته ولما سلم أخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما اعلمه وبقيت الاخرى والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شأنه وعدنا بالعشي الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها أجمعين وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار علي بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الاسواق وأقمت بها يوما واحدا ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الاكراد في بيوت الشعر ويقال أن أصلهم من العرب ثم وصلنا الى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندي الاصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكرياء الملتاني وقرأ على مشايخ توريز وغيرها وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينة

تستر وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضيرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الانهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها أبواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزى وفي هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذروان تستر واعجب * من جمعه ماء لري بلاده

كمليك قوم جمعت أمواله * فغدا يفرقها على أجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى بن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له أربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور أحدهم موكل بأوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتى الفقراء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد ان قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكون ووقار وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الى الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد

واحدة

واحدة بأبدع جواب وأحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

(حكاية)

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها في زمان الحر كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمى أصحابي أيضا فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لي يدعى بهاء الدين الختني فمات بعد سفري وكنت حين مرضي لا أشتهي الاطعمة التي تصنع لي بمدرسته فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به الي فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الي وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام في السوق وهلا أمرت الخدّام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلبه منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به واطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيرا ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا في جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة ايذج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضا مال الامير وهي حضرة السلطان أتابك وعند وصولي اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرماني وله النظر في جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا فأكرمني وأضافني وأنزلني بزاوية تعرف باسم الدينوري وأقمت بها أياما وكان وصولي في أيام القيظ وكنا نصلي صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل الى الزاوية ضحوة وكان في صحبتي اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

(ذكر ملك ايذج وتستر)

وملك ايذج في عهد دخولي اليها السلطان أتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولي يوسف بعد أبيه أتابك أحمد وكان احمد المذكور ملكا صالحا سمعت من الثقات ببلاده انه عمر بممالكه أربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة ايذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده أثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدّامه ويبعث منه هدية لملك العراق في كل سنة وربما وفد

عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان أكثرها في جبال شامخة وقد نحتت الطرق
في الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب بأحمالها وطول هذه الجبال مسيرة
سبعة عشر في عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط
وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل
المسافر الى مدرسة منها أوتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه
فان عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطي كل واحد منهم قرصين
من الخبز ولحماً وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان اتابك أحمد زاهدا
صالحا كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر

(حكاية)

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك
يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا فامرهم باختبار ذلك على
جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم امراء
العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق
وامسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان
أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركية أنت أبي وعوضه
عن هديته باضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير الا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده
وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي أخوه افراسياب ولما دخلت
مدينة ايذج اردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتأت لي ذلك بسبب انه لا يخرج
الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه فمرض في تلك الايام
ولما كان في احدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته وذهب عني ثم جاء بعد
صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران احدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم
ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرقص الفقراء ويدعون لابن السلطان
فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم
على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور ولما
كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء
والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك أن تذهب في جملتهم فأبيت
عن ذلك فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئا
رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التلاليس وجلال

الدواب

الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوند كارما ومعناه مولاى أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لى يومئذ انى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلى أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما وهى نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا للجلوس فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفى احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عنى أصحابى لما رأوا أقدامى نحوه وعجبوا منى وأنا لا علم عندى بشئ من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت فى الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رمونى بأبصارهم جميعا فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان أنحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بينى وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جىء بالجنازة وهى بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملئوا أغصانها بثمارها والاشجار بأيدى الرجال فكان الجنازة تمشى فى بستان والمشاعل فى رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهب الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا يدعونى اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا فى درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لا فرش به لاجل ماهم فيه

من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة و بين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألنى عن حالى و بلادى وسألنى عن الملك الناصر و بلاد الحجاز فأجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لى السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا و بذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ فى الثناء على الفقيه المذكور وظهر لى ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر ثم قال لى باللسان العربى وكان يحسنه تكلم فقلت له ان كنت تسمع منى أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غير هذا وأشرت الى الآنيتين فخجل من كلامى وسكت وأردت الانصراف فأمرنى بالجلوس وقال لى الاجتماع مع امثالك رحمة ثم رأيته يتمايل و يريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلى بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود فى طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه فى داخل المجلس فوجده فى طاق هنالك فأتى الى به فأخجلنى بره واعتذرت اليه فقبل نعلى حينئذ ووضعه على رأسه وقال لى بارك الله فيك هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك والله انى لارجو أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلى من حضرة ايذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التى بها قبورهم وأقمت بها أياما و بعث الى السلطان بجملة دنانير و بعث بمثلها لاصحابى وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عشرة أيام فى جبال شامخة وفى كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ما هو فى العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفى اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ وهى آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها فى بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة اصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كأنه تثنية فيروز وهى مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار و بساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وامامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الاغانى المطربة فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان وهى كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد فى النهاية من الحسن يصعد اليه فى درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة ابراج الحمام و وصلنا بعد العصر الى مدينة اصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة و يقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة اصفهان من كبار

المدن

المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخاري وخوارزم وقشره أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل اصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعى أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لتأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضافت طائفة أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ على بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته

(كرامة لهذا الشيخ)

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فأعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت أريد فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فأتوا به فكساني اياه

فأهويت الى قدميه أقبلهما وطلبت منه أن يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما أجازه والده عن شيوخه فألبسني اياها في الرابع عشر لجمادى الاخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ولبس علي من الامام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ أخي فرج الزنجاني ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينوري ولبس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ولبس علي من أبي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سري السقطي ولبس سري السقطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن بن أبي الحسن البصري ولبس الحسن ابن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال ابن جزي هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطي صحب معروفا الكرخي وصحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي وأخو فرج الزنجاني انما المعروف انه صحب أبا العباس النهاوندي وصحب النهاوندي أبا عبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف أبا محمد رويما وصحب رويم أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الاسود وليس بينهما أحد والله أعلم والذي صحب أخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا الى بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين اصفهان مسيرة ثلاث وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ثم سرنا منها الى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد وهو في النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها

كل

كل مايحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق ملك شيراز وفي يزد خاص يصنع الجبن اليزد خاصي ولا نظير له في طيبه ووزن الجبنة منه من أوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاترك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بيائين مسفولنين أولاهما كسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار احدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شئ ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداداد ومعنى خداداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين أبناء أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الى مصلاه فأرسل يدي وأومأ الى ان أصلي الى جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعاه نائباه بما جرى لديهما

من القضايا وتقدّم كبار المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الى القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا

(حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة)

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان عليا ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذي بيده انما هو وارث عن اجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثنا عشر ألفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له انه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أوتي به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك في موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل القاضي أمر أن يرمى به الى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدّة لا كل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا

غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما ارسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت اذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشئ فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فأكب على رجلي القاضي يقبلهما واخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه واعقابه يتوارثونه ما دامت تلك الثياب اوشئ منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وادخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الي فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت ان أم السلطان واخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله

(ذكر سلطان شيراز)

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحاق ابن محمد شاه ينجو سماه أبوه

باسم الشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الأخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والأعاجم وبطانته الادنون اليه أهل اصفهان وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسألت عن شأنه فأخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان أبو محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفي ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان أمير الامراء وسيأتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها وهي من أعظم بلاد الله مجبى ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والى المجابي بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا واقام بها الامير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون وأراد حملهم الى العراق ليطلبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى في تلك الحال فان عادة نساء الاتراك ألا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة واولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الى الامير حسين فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في أجمل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين في ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى اصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر

ونصف

ونصف شهر واشتدّت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهى مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبى اسحاق ليلا ويقتل ما شاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فأمر السلطان ان تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته فى مائة من أصحابه فضرب على العسكر واحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الى قلعته ولم يصب من أصحابه الا واحد اوتى به الى السلطان أبى اسحاق فخلع عليه واطلقه وبعث معه امانا لمظفر لينزل اليه فابى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة فى قلب السلطان أبى اسحاق لما رآى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان فى خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر انى عاهدت الله ألا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتى وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان فى عشرة من أصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الى المحلة راكبا فأجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبى اسحاق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان أبو اسحاق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر أساسه فأخذوا فى ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فانتهوا فى المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا نحو ذلك فى برادع الدواب وأخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم فى منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والى المدينة يقول ان معظم مجباها ينفق فى ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكى التوريزى وهو من الكبار كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جيلان ولهذا

الامير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعا وقدّم كل واحد فى شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور فى الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثرا وأعظم ما تعرفناه من عطيات أبى اسحاق انه أعطى الشيخ زاده الخراسانى الذى أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم

(حكاية)

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى الدار من سكان خوارزم يسمى بالامير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافى عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره فى ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب فذهب الى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمن دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلا مصرية فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به

(حكاية تناسبها)

اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراسانى وهو الذى تقدّم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأ يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجئ بذلك وأمر المريض ان يقعد فى احدى كفتى الميزان فقال يا خوند عالم لو علمت انك تفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

(حكاية تناسبهما)

وفد عليه الفقيه عبد العزيز الاردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم فى اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه

يوما

يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فأعجبه حفظه وحلف له برأسه انه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وأمر أن يلقى فيها ألف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هى لك مع الصينية ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفراينى وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا وسنذكر كثيرا من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا لما قدمناه من ان السلطان أبا اسحاق يريد التشبه به فى العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء

(ذكر بعض المشاهد بشيراز)

فمنها مشهد احمد بن موسى اخى الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به و يتوسلون الى الله بفضله و بنت عليه طاش خاتون أم السلطان ابى اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون انها تأتى الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقاة ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسينى فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وأوتى بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند ابواب الملوك ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائرا واستلمه وتأتى الخاتون الى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد احمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعا وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان ابى اسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الاولياء شهير الذكر وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند

(كرامة لهذا الشيخ)

يحكى انه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فأصابتهم مجاعة فى طريق

الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار وهي في ذلك المحل كثيرة جدا ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدّوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى اتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له واخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره واتى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه اهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره فلما قرب منهم امسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الارض بحيث يرونه فجاؤا اليه وتمسحوا به وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار واقام عندهم اياما وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكران الشيخ غاص في بعض تلك الايام بحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا وقال للملك اختر ما في احداهما فاختار ما في اليمنى فرمى اليه بما فيها وكانت ثلاثة احجار من الياقوت لا مثل لها وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا انهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون في بيوتهم بين اهليهم واولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير وان اكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه واطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان البقلي من كبار الاولياء وقبره في مسجد جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام ابي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي قال اخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن ابي بكر بن المبارك الزبيدي قال اخبرنا ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال اخبرنا ابو الحسن المكي ابن محمد بن منصور بن علان العرضي قال اخبرنا القاضي ابو بكر احمد بن الحسن الحرشي عن ابي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الامام ابي عبد الله الشافعي وسمعت ايضا عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام رضي الدين ابي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ

جلال

جلال الدين أبى هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمى الكوفى بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروى عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هنالك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان وليس فى معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكأن الميت لم يبرح وذكر لى انهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

(حكاية)

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألنى عن مقدمى فأخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد فأخبرنى انه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التى جلست اليه فيها هى موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطى عليه ألواح خشب وأرانى صندوقا كان بازائه فقال فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح فدفع لى هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة موارانى وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف على وأضافنى بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدى وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى وربما ألمع فى كلامه بالعربى وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك احواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنيتان على قبر شمس الدين السمنانى وكان من الامراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره فى الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التى كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه فى كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم ثم كان خروجى

من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا اول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون

(كرامة لبعضهم)

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل اثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه فدخل علي في اثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرفعت رأسي اليه فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأردّه له فلم يعد الي فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولي ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم المسافر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوّجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق فتقضى حاجته باذن الله وهذا الشيخ أبو اسحاق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدّام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون القالب في صبغ أحمر ويلصقونه بالامر فيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمنه انه من عنده نذر للشيخ أبي اسحاق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحاق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوّج بأخت هذا الملك وسيأتي ذكره

وذكر

وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاي وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائي شيخ خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها الا في موضع واحد يسمى الطرفاوي وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

(مدينة الكوفة)

وهي احدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الأعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول وبهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج يذكر انه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون انه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون انه متعبد ادريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا انه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض فأخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم وان أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب

الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت انها على قبر المختار بن أبي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا وبقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم انه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم السيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيعرف الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والاطبال والانفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمى أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن اذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير واهل هذه المدينة طائفتان اولاد رخيك واولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد

(مدينة بغداد)

مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء قال أبو الحسين بن جبير رضى الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية فقد ذهب رسمها ولم يبق الا اسمها وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهى تردها ولا تظمأ وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ قال ابن جزى وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسنا فى نواحيها
ترجى لها عودة فى الدهر صالحة * فالان أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا وفيها قال الامام القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى وأنشدنيه والدى رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوّقنى * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهوائين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضى عنه (طويل)

سلام على بغداد فى كل موطن * وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها * وانى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الاقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوّه * واخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشدنيه والدى رحمه الله غير ما مرة (بسيط)

بغداد دار لاهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشى مضاعا فى أزقتها * كأننى مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدرا منيرا * فطوت غيهبا وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا * د فكادت لولا البرى ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء غميرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر فى احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما * خلق الهوى العذرى من اخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن * فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم فى ذلك فى نزهة متصلة وببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربى ثمانية وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس الا انها خربت وحمامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام أسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلى الارض به والنصف الاعلى مطلى بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفى زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال فيه ايضا انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط احداها يتزر بها عند دخوله والاخرى يتزر بها عند خروجه والاخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الاتقان كله فى مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها فى ذلك

(ذكر الجانب الغربى من بغداد)

الجانب الغربى منها هو الذى عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفى ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار

وفى هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكرخى رضى الله عنه وهو فى محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد على بن أبى طالب وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

(ذكر الجانب الشرقى منها)*

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الامثال تضرب بحسنها وفى آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الاربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل مايمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعه وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن على بن عمر القزوينى وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعه وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على بن على بن أبى البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطيب المارستانى قال أخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السجزى الصوفى قال أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودى قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى عن ابن عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى عن أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى والجامع الثانى جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

(ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها)

وقبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر

المهدى وقبر الهادى وقبر الامين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدى وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفى وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقى وقبر المستكفى وقبر المطيع وقبر الطايع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجد وقبر المستضئ وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام ابى عبد الله احمد بن حنبل رضى الله عنه ولا قبة عليه ويذكر انها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر ابى بكر الشبلى من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سرى السقطى وقبر بشر الحافى وقبر داود الطائى وقبر ابى القاسم الجنيد رضى الله عنهم اجمعين وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضى الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولى الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره ههنا

(ذكر سلطان العراقين وخراسان)

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادر خان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خدابنده وهو الذى أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خدابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لان خدا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما فى معناهما وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشذ ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمى به وأخو خربنده هو قازغان الذى يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمى بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخدابنده هو الذى اسلم وقدمنا

قصته

قصته وكيف أراد ان يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خدابنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فاعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى ان دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ماهما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان ان يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغي خاتون وقد بعث الي وقال لي الليلة أبيت عندك وما الرأي الا أن تجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذ ذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم ان دمشق خواجه بالقلعة أمر الامراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغدو خرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك ابا سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار اعدائهم وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده امير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان ابي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خدابنده ومعه عساكر التتر وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وافردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها واجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه ايادسابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له

انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيرو زشاه بعد ان لجأ اليه وقتله فأبى الجوبان الا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الامان ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما اوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الى ديار مصر فاكرمه الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فأبى من قبولها وقال انما اريد العساكر لاقاتل اباسعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة اعطى هو للذي يوصلها اليه احسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى ابي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقر فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوّج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من أجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوّجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه والنساء لدى الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا أمرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدّة أيامه ثم انه تزوّج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت امراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان ابي سعيد كمثل ما كان ابوسعيد فعله من تزوج امرأته

(ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد)

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز

والسلطانية

والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى و ورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران و بلاد كيج ومنهم محمد شاه بن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحاق الذى تقدّم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب اتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ولنعد الى ما كنا بسبيله ثم خرجت من بغداد فى محلة السلطان ابى سعيد وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله و نزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى و ترتيبهم انه يأتى كل أمير من الامراء بعسكره وطبوله واعلامه فيقف فى موضع لا يتعداه قد عين له اما فى الميمنة او الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل و بوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدّم امام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهى تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغنى عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل أمير له اعلام وطبول و بوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا و يعلق من عنقه ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبطح على الارض و يضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لا يحاشون من ذلك احدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه فى محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه فى محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق و ينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة و ينزل كل أمير على حدة و يأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر و يكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التى هى الملكة ثم اطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم اطبال الامراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة

فى عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم اثقال السلطان و زاملته واثقال الخواتين ثم أمير ثان فى عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام ثم صحبت الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد عشرة أيام الى مدينة تبريز و نزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وانزلنى الامير بتلك الزاوية وهى ما بين أنهار متدفقة واشجار مورقة وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد و وصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر وهى بأيدى مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الاتراك وهن يشترينه كثيرا و يتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان و بخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء وبه أنواع الاشجار ودوالى العنب وشجر الياسمين ومن عادتهم انهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر فى صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبى سعيد الى الامير علاء الدين بأن يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكانى وادخلنى عليه فسألنى عن بلادى وكسانى واركبنى واعلمه الامير انى اريد السفر الى الحجاز الشريف فأمر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل وكتب لى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لى به السلطان وكان قد بقى لاوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لى ان اسافر الى الموصل وديار بكر لاشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد فى حين سفر الركب فأتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام و راه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهى معتدلة الهواء

رائقة

رائقة الحسن على بلائها ودرو س معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة
ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينه تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة
الاسواق كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة الشمالية
منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا
منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وباعلاها ربوة كان بها حصن
وباسفلها الخان المعروف بخان الحديد له ابراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك
الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها
عيون تنبع بالقار ويصنع له احواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض
حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه
الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة
فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه
قطعا وينقلونه وقد تقدّم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا
من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل

(مدينة الموصل)

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشان شهيرة الامتناع
عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد
شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما
كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه
لسعته ولم أر في اسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند وللموصل
ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة
تدور به شبابيك حديد وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن
والاتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان احدهما قديم والآخر حديث وفي صحن
الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة
وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها
ابواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد
جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما
بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى
وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه

بالتطهر فيها ثم صعدوا التل ودعاوا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام واثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى علي الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه في هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوّا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس ارجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحه ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة ايضا واهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله

(بسيط)

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال

قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء (خفيف)

لنصيبين قد عجبت ومالى * دارها الى داع الى العلات

يعدم الورد أحمرا فى ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية فى سفح جبل تشبه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور البركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار اكراد ولهم شجاعة وكرم ممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردى أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه انه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لى وزودنى بدراهم لم تزل عندى الى أن سلبنى كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهى عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهى الآن خراب لا عمارة بها وفى خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهى مدينة عظيمة فى سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها واحسنها أسواقا وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع فى قنة جبلها قال ابن جزى قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عنى شاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سراى الحلى بقوله فى مسمطه (سريع)

فدع ربوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء

ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعة الشهباء

(محرق شيطان صروف الدهر)

وقلعة حلب تسمى الشهباء ايضا وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريم شهير الصيت ولى الملك بها نحو خمسين سنة وادرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون

(ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى اليها)

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ورث الملك عن ابيه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر اكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطا ياجريا على سنن أبيه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الاندلسى المروى الكفيف مادحا فاعطاه عشرين الف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجارى قرأ بمدينة تبريز وادرك العلماء الكبار

وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه

(حكاية)

ذكر لي ان امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضي فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته الى القاضي فأبى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينه فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندي شئ أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيأ ثم قال لها اذهبي الى القرية وانتظريني خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذي معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف لقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت في جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لي به السلطان فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لي بذلك ووجه عن أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويج فأوصاه بي وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم أزل في جواره وهو يحسن الي ويزيدني على ما أمر لي به وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم والامير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الامير الحويج المذكور

و وقفنا

و وقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشد (مشدّ) الدواوين مقيما للعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك و نور الدين القاضي و زين الدين بن الاصيل وابن الخليلي وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضى فكنت في أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفوني وهي أوّل حجة حجها والاخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر وجماعة غيرهم وفي منتصف ذي القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن القاضي ابي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه ابو محمد عبد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسي وأبو العباس ابن الفقيه ابي علي البلنسي وابو محمد بن القابلة وابو الحسن البياري وابو العباس ابن تافوت وابو الصبر ايوب الفخار واحمد ابن حكامة ومن اهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن القاضي أبي العباس ابن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه ابو محمد بن مسلم وابو اسحاق ابراهيم بن يحيي و ولده ووصل في تلك السنة الامير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج أبو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضي فخر الدين وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل احمد بن الامير رميثة ومبارك ابن الامير عطيفة من العراق صحبة الامير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال واتوا بصدقات عظيمة للمجاورين واهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكر وابعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة بردّه فردّ فبعثه ثانية على طريق جدة حتى اعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثا ولما انقضى الحج اقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور امير جندار الناصري وسبب ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى

ايدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتي بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شئ فاطلبني به فشتمه أيدمور وقال له ياقواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب وغضب له عبيده وركب ايدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به أمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض اهل مكة على القتال وركب من بالركب من الاتراك واميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضي والائمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الى مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الى وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة احد اولاده يطلب له الامان ولولده فأمنوا واتى رميثة وكفنه في يده الى الامير فخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت في تلك الايام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصف الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم علي وسماني باسمي واخذ بيدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم امسك اصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شئ فدفعت له خاتمي فلما سألني عن هذا الاعمى قلت له اعطيته لفقير فقال ارجع في طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الابنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها ابا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة اتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا اربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيرا ثم ركبنا البحر من جدة في مركب

يسمونه

يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر

(حكاية)

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن يأخذهما من جلب أهل اليمن فأخذهما وأتى بهما اليه فأتاني التجار باكين وذكروا لي ان في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني أن أكلمه في ردها وان يأخذ سواها فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له ان التجار في جوف هذه العديلة شيأ فقال ان كان سكرا فلا أرده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ما ردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة وكان قد دخل في تلك الايام دار تاجر من أهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت بذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدتنا طائفة من البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على رؤسهم عصائب حمرا في عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة

(ذكر سلطانها)

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن ابى نمى وابوه امير مكة وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة الذين تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنها قديما وهى كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبوله الهندى من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائى له شيأ الا أبريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وصعتر فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتى كل واحد منهم بما حضره من غير تكلف شئ واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون فى أول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى أن تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى أن يصلى صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم أبدا ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقى عمرى فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

(ذكر سلطان حلى)

وسلطانها عامر بن ذويب من بنى كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج فى سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلنى وأكرمنى وأقمت فى ضيافته أياما وركبت البحر فى مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبى وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم فى مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم

من

من فضله واعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يماثلهم فى ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاس الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأقنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم الى مرسى الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهى بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولاهلها لطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهى وادى الحصيب الذى يذكر فى بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ فى وصيته يا معاذ اذا جئت وادى الحصيب فهرول ولاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ولهن مع ماذكرناه من الجمال الفائق الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهن مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له الى أن يرجع ابوه ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا ولو اعطيت احداهن ماعسى ان تعطاه على ان تخرج عن بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الابيانى والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمنى وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

(كرامة)

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبرائهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق افعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ماتقولون نقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا

وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتدّ بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافنى وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت فى صحبته الى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعى وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وانزله بزاويته وسلمت عليه معه واقمنا عنده ثلاثة أيام فى خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا احد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذو وتجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك وهى ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

(ذكر سلطان اليمن)

وهو السلطان المجاهد نور الدين على ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود بن السلطان المظفر يوسف بن على بن رسول شهر جدّه يسمى برسول لان أحد خلفاء بنى العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل اولاده بالملك وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذى بعثه الشيخ الفقيه ابو الحسن الزيلعى فى صحبتى تصدبى الى قاضى القضاة الامام المحدث صفىّ الدين الطبرىّ المكىّ فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره فى ضيافته ثلاثا فلما كان فى اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بى عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه ان يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضى وقعد القاضى عن يمين الملك وأمرنى فقعدت بين يديه فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد أبى سعيد رضى الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامى وانزالى وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق

ويليهم

ويليهم أصحاب القسي وبين يديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه و وقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم و وقف حيث رسم له في الميمنة او الميسرة لا يتعدّى أحد موضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود يقول السلطان للامير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا و يقعد على بساط هنالك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء و وجوه الاجناد و مجلس كل انسان للطعام معين لا يتعدّاه ولا يزاحم أحد منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا اعلم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الى وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالاجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء ايام المطر والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة و بينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانة وكولم وقالقوط وفندراينة والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة

(حكاية)

ذكر لي ان بعضهم بعث غلاماله ليشترى له كبشا و بعث آخر منهم غلاماله برسم ذلك أيضا فاتفق انه لم يكن بالسوق فى ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانتهى ثمنه الى أربع مائة دينار فأخذه أحدهما وقال ان رأس مالى أربع مائة دينار فان أعطانى مولاى ثمنه فحسن والا دفعت فيه رأس مالى ونصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده خائبا فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى فكان يحضر طعامه فى كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام اكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين و تواضع وصلاح ومكارم اخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على مايجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت فى ضيافته اياما وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهى مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم اغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهى مدينة كبيرة لها سوق عظيمة الا أنها أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التى ينحرونها فى الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة و وصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهى مدينة متناهية فى الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التى لانظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهى القوارب الصغار اليه ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان اهلها فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلى وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة أهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة فى ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذى كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابى ليس هذا بتاجر

واغا

نما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضى وكان فيهم أحد أصحاب القاضى فعرفه
لك فأتى الى ساحل البحر فى جملة من الطلبة وبعث الى أحدهم فنزلت انا وأصحابى وسلمت
على القاضى وأصحابه وقال لى بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال
سلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لى ان
لعادة اذا جاء الفقيه او الشريف او الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم
ليه كما طلبوا

(ذكر سلطان مقدشو)

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر وهو فى الاصل
من البربرة وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربى ومن عوايده انه متى وصل مركب يصعد
اليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس
وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن
استحق ان ينزله عنده أنزله ولما وصلت مع القاضى المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصرى
الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى فقال له بلغ الامانة وعرف
مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق
التنبول والفوفل فأعطانى عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى القاضى كذلك وأعطى
لاصحابى ولطلبة القاضى ما بقى فى الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقى فسكب على وعلى
القاضى وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهى دار معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضى
بيدى وجئنا الى تلك الدار وهى بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى
بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول
لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه فى
صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت
والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ويجعلون اللبن المريب
فى صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل
الاخضر والعنبا وهى مثل التفاح ولكن لها نواة وهى اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل
كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها فى الخل وهم اذا أكلوا لقمة من الارز
أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله
الجماعة منا عادة لهم وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضى
وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم وتلك عادتهم فلما كان فى اليوم الرابع

وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة واحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة واتوا الاصحابي بكسي تناسبهم واتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعادتهم في السلام كعادة اهل اليمن يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه اربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي اخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والابواق والانفار وأمراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والامراء ووجوه الاجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ثم ضربت الاطبال والانفار والابواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك احد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا باصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الامراء ثم وجوه الاجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار امرائه بعث اليه

فأكل

فأكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيبهم مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالاحكام الشرعية حكم فيه القاضى وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والامراء وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائما ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها واشجارها الموز والليمون والاترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب اهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة وذكر لى بعض التجار ان مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

(ذكر سلطان كلوا)

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ويكنى ايضا أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده

من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن ابي نمي ولقيت بمقدشو اتبل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

(حكاية من مكارمه)

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتعرض له احد الفقراء اليمنيين فقال له ياابا المواهب فقال لبيك يافقير حاجتك قال اعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم اعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق راسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فامر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولي اخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذي كان يعطي ولم يترك من بعده مايعطي ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل وقد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهي من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة مايباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها في صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم

هذه

هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا فى صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكرانى وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن اخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السروال وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات فى اليوم وهى كثيرة المساجد ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوائدهم الحسنة التصافح فى المسجد أثر صلاة الصبح والعصر يستند اهل الصف الاول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون اجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها احد بسوء الا عاد عليه مكره وحيل بينه وبينها وذكر لى ان السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة فى البر والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر لى ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شؤونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى بن على كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء فى بلد سواها وأكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب واكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب اصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن ابى بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا

ذكر لى ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفى الايام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدى وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهى معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا فى جوارها الى ان يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهى منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادى السمك وفى الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود ابن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها اللهم الا أن فى مدينة زبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

(ذكر التنبول)

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب أو يغرس فى مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الاصفر وتجتنى أوراقه فى كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لاسيما ان كان أميرا أو كبيرا واعطاؤه عندهم اعظم شأنا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ويجعله الانسان فى فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيأ من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح

أكله

أكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد ذكر لي ان جواري السلطان والامراء ببلاد الهند لا يأكلان غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

(ذكر النارجيل)

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الاشجار شأنا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منه حبالا يخيطون بها المراكب عوضا من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه وأما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر وينجر من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه

الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعا ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

(ذكر سلطان ظفار)

وهو السلطان الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والانفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه احد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحدا من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة وأتي بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته ان لا يعارضه احد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس المصيري من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا

وذلك

وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدّا هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كاب البحر يشرح ويقدّد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان (بضم اللام) وهو فى وسط البحر وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

(ذكر ولى لقيناه بهذا الجبل)

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فردّه وأقام يصلى الى العشاء الآخرة ثم أذن وصلينا ها معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف فودّعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم انى أردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب على الخوف ورجعت الى أصحابى فانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق الا أنها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت ذلك عليه فاشتدّ خجله وقال لى ظننت انهم ذبحوها وانقطع عنى بعد ذلك من الخجل فكان لا يقربنى حتى أدعوه وكان طعامى فى تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدوّ والعشى سمكا يسمى بالفارسية شير ماهى ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهى السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة لا يفضلون أحدا على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ويأكلونه بالتمر وكان عندى خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقتات من تلك السمك فى جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا فى يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

(كرامة)

وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ويدعى بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن

الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له
يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين
يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق
عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى أن فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق
ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام
لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها
السيلان وهو عسل التمر وأكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا
فيه وهى على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك
ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير
ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا
الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهات فى سفح جبل
فخيل لنا انها قريبة وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت
المشى اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب فسألت عن طريقها فأخبرت انى
أصل اليها عند العصر فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها وصحبنى خضر الهندى
الذى تقدم ذكره وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم وأخذت
أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مؤنة حملها وحملت فى يدى رمحا فاذا ذلك الدليل
يحب أن يستولى على أثوابى فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره
بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا
نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب
بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى وكنت أهز الرمح فهابنى ذلك
الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث
الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقانى وسقى صاحبى وذهبنا
نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشى فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشى
أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فأراد أن ننشب
فيها ويذهب بالثياب فقلت له انما نمشى على هذه الطريق التى نحن عليها وبينها وبين البحر
نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فتعالوا نمشى حتى نبيت بخارجها الى
الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد فى طريقنا ولم أحقق مقدار ما بقى اليها فقلت له انما الحق
أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رايت جملة من

الرجال

الرجال فى سفح جبل هنالك فخفنا أن يكونوا لصوصا وقلت التستر أولى وغلب العطش على صاحبى فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركنى الجهد لكنى أظهرت قوّة وتجلدا خوف الدليل وأما صاحبى فريض لا قوّة له فجعلت الدليل بينى وبين صاحبى وجعلت الثياب بين ثوبى وجسدى وأمسكت الرمح بيدى ورقد صاحبى ورقد الدليل وبقيت ساهرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته انى مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبى الثياب وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحرّ ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن فى جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بدّ لك أن تذهب معى الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسألنى عن حالى وأنزلنى وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهى حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ومعنى بيبى عندهم الحرّة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من ارض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتى اليهم فى البحر الهندى واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشدّ الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع انهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشى لا تفعل كذا لا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقربة من قلهات قرية طيبى واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمروارىّ والمروارىّ بالفارسية هو الجوهرى (المروار الجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضا التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام فى صحراء ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع وهى خصبة ذات انهار واشجار وبساتين وحدائق نخل وفواكه كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة

نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن و واو مفتوح) مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة اهلها انهم يا كلون فى صحون المساجد يأتى كل انسان بما عنده ويجتمعون للاكل فى صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبدا وهم إباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهرا أربعا فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلى وهم اذا أرادوا ذكر على رضى الله عنه كنوا عنه بالرجل فقالوا ذكر عن الرجل أوقال الرجل ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية أثر هذا مما يشهد بذلك

(ذكر سلطان عمان)

وسلطانها عربى من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بأبى محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلى عمان كما هى أتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحدا من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسى ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بحضرة ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهى على ماذكر لى مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل واكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز

(حكاية)

كنت يوما عند هذا السلطان أبى محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان فى رأسى فقال لها اذهبى واطردى الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا فى جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبى فافعلى ما شئت فذكر لى لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون فى جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها فى جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضا موغ استان وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهى جزيرة مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وبهذه

المدينة

المدينة سكنى السلطان والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الدارانى ومنه يصنعون الاوانى للزينة والمنارات التى يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهى لوت بادشاهى معناه بالعربى التمر والسمك طعام الملوك والماء فى هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهى على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يوسقونها فى القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح ابا الحسن الاقصارانى واصله من بلاد الروم فأضافنى وزارنى والبسنى ثوبا واعطانى كمر الصحبة وهو يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكر انهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها احد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر واقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر هذه الجزيرة قد نحت غار السكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى واجمل رضى الله تعالى عنه وسمة الخير والعبادة لائحة عليه

(ذكر سلطان هرمز)

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التائين المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته ان يأتى لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه متهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين فكان فى كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتى الينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها فقلت له انى أريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدى فذهب بى الى داره وهى على ساحل البحر والاجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل

فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن أخته وهو على شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها الان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه انه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة الا ان راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتى هو الى الجزيرة فدخلها وفر ابنا أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لي ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك

(حكاية)

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهرا وكان يغير هو وفرسانه

ويسلكون

ويسلكون برارى لايعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء ورواياه فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدّة لايقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلاده وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدّمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبى دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ويعدّونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ويأتى كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون فى عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

(ذكر سلطان لار)

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركمانى الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبى دلف الذى قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الرد وسألنى عن مقدمى وبلادى وأنزلنى وكان يبعث الى الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبى دلف شأن عجيب وأمر غريب فان نفقته فى هذه الزاوية عظيمة وهو يعطى العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أرفى تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس انه ينفق من الكون وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشأن فى الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبى دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التى كنت فى صحبتها وسمعت ان بالمدينة خنج بال المذكوره زاوية فيها جملة من الصالحين

المتعبدين فرحت اليها بالعشي وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان نحاف الجسوم كثير و البكاء غزير و الدموع وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا الى ولدي محمد وكان معتزلا في بعض نواحي الزاويه فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يا بني شارك هؤلاء الواردين في الاكل تنل من بركاتهم وكان صائما فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها الى مدينة قيس وتسمى أيضا بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس اشراف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر

(ذكر مغاص الجوهر)

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيأ يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك و يجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلاة و يفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدي فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا الى مدينة القطيف .

القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كأنه تصغير قطف وهى مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون احدا ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولى الله ويزيد بعد الحيعلتين حى على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلى خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهى التى يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أقصى ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمى أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بنى حنيفة وهى بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها فى صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك فى سنة ثنتين وثلاثين فوصلت الى مكة شرفها الله تعالى وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهى آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لاهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذى يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير امرائه بكتمور الساقى

(حكاية)

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية فلما أراد الدنو منها قالت له انى حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بأمير أحمد ونشأ فى حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان فى هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمى الخبر الى الملك الناصر فبعث الى أمير أحمد فى يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكترث بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتى عليك ألا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت الى جدة برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لى ذلك ولا تأتى لى رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى يروم السفر الى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لانظر حاله فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبى محمد

فخرج صاحبه وبعض التجار فى العشارى بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك فى صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير وسافرنا منه فى البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبنى كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بعفرور وماء يعرف بالجنديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزوّدنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى وأخبرنى ان البجاة أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندى نحو حمل من التمر الصيحانى والبرنى برسم الهدية لاصحابى ففرقته على الرفقة وتزوّدناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير وصلنا الى عيذاب وكان قد تقدّم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا فى جواره ثم وصلنا الى قرية العطوانى وهى على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الاعلى وأجزنا النيل الى مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الاقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الاقصرى ثانية ثم الى مدينة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوى ثانية ثم الى مدينة هو ثم الى مدينة اخميم ثم الى مدينة أسيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الى مدينة الاشمونين ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدّم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقنى الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التوزرى ولم يزل فى صحبتى سنين الى أن خرجنا من بلاد الهند فتوفى بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدّم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها مرتلمين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم فى القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصرانى ولم يأخذ منا نولا وفى العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهى أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا

وقد

وقد جمع الله فيه ماتفرق من المحاسن فى البلاد فأهله أجمل الناس صورا وانظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة فى الشأم والشفقة فى الروم واياه عنى به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أودارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لايحتجبن فاذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلادان يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة يعدون فيه مايقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار فى يوم خبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه مقيمين على السنة لاقدرى فيهم ولارافضى ولامعتزلى ولاخارجى ولامبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولايعيبون ذلك ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافنى وأكرمنى وأضافنى أيضا بها شمس الدين بن الرجيحانى الذى توفى أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان

(ذكر سلطان العلايا)

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى فأخبرته عما سأل وانصرفت عنه وبعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التى بالشام فهى أنطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهى من احسن المدن متناهية فى اتساع الساحة والضخامة أجمل مايرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود فى موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ماذكرناه

فرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة
ات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع
المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى
عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها
عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها
وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان
بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفي المدرسة أيضا سورة الفتح وسورة الملك
وسورة عم

(ذكر الاخية الفتيان)

وأحد الاخية أخى على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية
الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس
وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم
من أهل الشر والاخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب
والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضا ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش
والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون اليه
بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان
ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم
حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى
صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم
كما ذكرنا الاخى ولم أر في الدنيا أجمل افعالا منهم ويشبههم في افعالهم أهل شيراز واصفهان
الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم
وصولنا الى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى وتكلم معه
باللسان التركي ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال
لى الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لى انه يدعوك الى ضيافته أنت
وأصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على
تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من
الخرازين وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم
وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل

وذهبنا

وذهبنا معه الى زاويته فوجدنا زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى وفى المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفى وسطه انبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمى عندهم الجراجى (الجراغجى) وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفى أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم محتزم على وسطه سكين فى طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى وسواء حسنة المنظر وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

(ذكر سلطان انطالية)

وسلطانها خضر بك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو فى فراش المرض فكلمنا بألطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة فى رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب فصنعوا الناضيافة فى بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا واقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهى بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار لها قلعة فى جبل شامخ وصلنا اليها بالعشى ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة اكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات انهار واشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الى اقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الاعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار

المصرية والشام وسكن العراق مدة وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان اكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا احسن قيام

(ذكر سلطان اكريدور)

وسلطانها ابو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام ابيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم باصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره واظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه واجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يؤتى بالطعام فيكون أول مايفطر عليه ثريد في صحفة صغيرة عليه العدس مسقي بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الاطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان وتوفي في بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله اهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشيا على رجلي فبعث لي بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الي بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارسا واحدا والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية بها

(ذكر سلطان قل حصار)

وسلطانها محمد چلبي وچلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي اسحاق ملك اكريدور ولما وصلنا مدينته كان غائبا عنها فأقمنا بها اياما ثم قدم فاكرمنا واركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا اغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء

يقطع

يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضا دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها وأكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك ان الجواري يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لي ان القاضي بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا باعنة خيلنا ونازعهم في ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون فخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون أصحاب الفتى أخي طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك فأتى الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتى بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فألقينا الاخي طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

(ذكر سلطان لاذق)

وهو السلطان ينج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخي سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطموني واستصحب معه خيلا بعددنا وذلك في شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطا فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا في بستان خارج المدينة وذلك في إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان في عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيأة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أوّلا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدّة بسبب مخاف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكر ان صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الى بابه فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضه في زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فأكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مدّ وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال ولقينا

بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بابى الشسترى ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعى لنا وحصلت لنا بركته

(ذكر سلطان ميلاس)

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك بن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمى عارف بالفنون فاضل وكان السلطان فى أيام اقائى له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة اياسلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسأل منى هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك فى شأنه بما يذهب ما فى خاطره فأثنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه فى مدينة برجين وهى قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهى جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسنات والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى على ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الاوقات لقربها من بلاده التى بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم فى الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضى فى اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل وبعث ولده عوضا منه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

(حكاية)

يذكر انه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الى

المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى راسه طبق منها وهى مقطوعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس
فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ
فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلوانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ فخرج الشيخ فى إتباعه
وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا
ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وتوله وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسى المتعلق الذى لا يفهم فكان
الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوى وأهل تلك
البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم فى ليالى الجمعات
وفى هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذى يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا
الى مدينة اللارندة التى (بفتح الراء التى بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل)
مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

(ذكر سلطان اللارندة)

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها
للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر
الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من
تصيده فنزلت له عن دابتى فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل على ومن عادة ملوك هذه
البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا فى اكرامه وان سلم عليهم
راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لى ذلك مع بعضهم وسأذكره
ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ودخلت معه المدينة فأمر
بانزالى أحسن نزل وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلوا فى طيافير الفضة والشمع
وكسا واركب وأحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة
وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون
الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها
الاشجار ودوالى العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف
الغنم لا مثل لها فى بلد من البلاد ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد
الاتراك وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن
الامير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف
من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى
مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهى من بلاد

ملك

ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى جاروق وهو الامير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثاً وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهى من بلاد صاحب العراق وهى احدى المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدى خواتين الامير علاء الدين أرتنا المذكور وهى من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى آغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغى خاتون ودخلنا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وأمرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخى أمير على وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشاً وقناديل وطعاماً كثيراً واتقاناً والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون فى كرامة الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخى هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مدّ وآخره سين مهمل) وهى من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره ويزوّدون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى أخى أحمد بجقجى وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيم منه معقودان بينهما قاف وياؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخى چلبى وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخى بجقجى فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لى ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعاً وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشدّ الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة فى أحسن ضيافة ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألنى عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك و بلاد الشام ومصر

وسلاطين التركمان وكان مراده ان أشكر الكريم منهم واذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فأكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي چلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستاً في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلدان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جنانها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها لصاحب العراق وبقرب منها بلدة سونسى (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو مدّ ونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضاً وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثاً في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا الى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي نظام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضاً من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا الى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر دورها بساتين فيها الاشجار والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئاً على عصا ثابت الذهن مواظباً الصلاة في أوقاتها لم ننكر من نفسه شيئاً الا انه لا يستطيع الصوم خدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم نقصتم حرمتي وانما

أقل

اول الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثا ثم انصرفنا الى مدينة بركى (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا اليها بعد العصر فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية الاخى بها فقال أنا أدلكم عليها فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه فى بستان له فأنزلنا بأعلى سطح بيته والاشجار مظللة وذلك أوان الحرّ الشديد وأتى الينا بأنواع الفاكهة وأحسن فى ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرّفنا ان بهذه المدينة مدرّسا فاضلا يسمى بمحيى الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرّس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة ومماليكه وخدّامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرّجة حسان مطرّزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا وأحسن السلام والكلام وامسك بيدى واجلسنى الى جانبه ثم جاء القاضى عز الدين فرشتى ومعنى فرشتى الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرّس وأخذ فى تدريس العلوم الاصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها وأنزلنى فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد المغرب فمضيت اليه فوجدته فى مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض يدور بها القاشانى وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدّامه وقوف عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الىّ واستقبلنى وأخذ بيدى وأجلسنى الى جانبه على مرتبته وأتى بالطعام فأكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لى بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرّس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرّس الى السلطان بخبرنا وأثنى فى كتابه والسلطان فى جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدّة الحرّ وذلك الجبل بارد وعادته ان يصيف فيه

(ذكر سلطان بركى)

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرّس يعلمه بخبرى وجه نائبه الىّ لآتيه فأشار علىّ المدرّس ان أقيم حتى يبعث عنى ثانية وكان المدرّس اذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث فى طلبى ثانية فشق ذلك على المدرّس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضى التوجه معك لاقرّر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله فى الركاب وركبت أنا وأصحابى وصعدنا الى الجبل فى طريق قد نحتت وسوّيت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الى صهره

السلطان أرخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث الي بيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متى احتيج الى سده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ثم عاد الي وأعلمني بذلك وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه فسألني عن حالي ومقدمي وسألني عن الحجاز ومصر والشأم واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن في كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث الينا في كل يوم فيحضر طعامه وأتى يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فأمره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار ولا خضر فأمر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت إقامتنا بذلك الجبل فأدركني الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذ ذاك أفهمها فأجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ما قال قال ان السلطان بعث الي يسألني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يأمر ان تقيما هنا اليوم وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ما هذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج الماء

من

من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعدمعنا على الاقتاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه وأنا مما يلى القاضى وقعد القرّاء أسفل المصطبة والقرّاء لايفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قدعصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صينى فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن تورّع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت فى ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره

(حكاية)

وفى أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له القاضى والفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقرّاء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودى طبيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فأخذنى ما حدث وتقدم من الامتعاض فقلت لليهودى ياملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قرّاء القرآن وأنت يهودى وشتمته ورفعت صوتى فتعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى فأخبره الفقيه به وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال ولما انصرفنا قال لى الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لايتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرّفته بنفسه

(حكاية أخرى)

وسألنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولاسمعت به فقال لى انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم ان يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت ان زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم ان يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيأ فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفى ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع صنيعا عظيما ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القرّاء القرآن بالاصوات الحسان وعدنا الى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ثم بعث الىّ مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرّس محيى الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر

يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوّة وياء مدّ وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخي محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فأضافنا ودعا لنا وسرنا الى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشر أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا وحيطانه من الرخام الملوّن وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوّعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك بن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وأنا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزل له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الي الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الى مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مدّ وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الامير الاخبية وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك بن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الي بالزاوية فسلم علي واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤمّ به ان الامير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا الشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقدسي والكمخا وجواري وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى فيسبي ويغنم ويفني ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدّت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم الى الباب فأمر نصارى

جنوة

جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مدّ وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مشدّدة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

(ذكر سلطان مغنيسية)

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعلق فى قبة لا سقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرّس الفاضل مصلح الدين فركب معى الى السلطان وأعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدّوا عليهما حتى أقرّا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلف دوابنا تلك الليلة وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فأعلمنى لانظر من يحترس ثم نمت فما أيقظنى الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بأياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الى الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا

(ذكر سلطان برغمة)

وسلطانها يسمى يخشي خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشي (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه في مصيف له فاعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ثم اكترينا من يدلنا على الطريق وسرنا في جبال شاهقة وعرة الى ان وصلنا الى مدينة بلي كسري (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارة مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفا وصاروا يصلون به ويجمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم وأتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى

(ذكر سلطان بلي كسري)

ويسمى دمور خان ولا خير فيه وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورأيته وبعث الي بثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة ثم سرنا الى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر ماء شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بني عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعى وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ووعظ وذكر واحسن ثم أخذوا في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

(حكاية)

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق

واختلف

واختلف الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القرّاء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبر واحال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمى الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فتى علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلى ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا في الليلة وسمى الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لاقدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات بنبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصرى السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

(ذكر سلطان برصى)

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤنه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالده هو الذى استفتح مدينة برصى من ايدى الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه ثنتى عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائى له وبعث الى بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاى وكسر النون وياء مدّ وكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعى كرله بزاوية فتى من الاخية ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهى خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيلون خاتون وهى الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار اربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها

من أبا آر بها قريبة وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جداً رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله فى سواها متناهى الحلاوة عظيم الجرم صافى اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكى وهو من الفضلاء الكرماء ما جئت قط الى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معى الى الخاتون المذكورة فأكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بأيام وصل الى هذه المدينة السلطان آرخان بك الذى ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرس لى فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهى قاصدة مدينة ينجا ونحن فى اتباع أثرها فوصلت الى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادى فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذى كان معها استخلاصها فذهب الوادى بهما معاً وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع فتوجهنا اليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكى نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفتى ايشان عربى كهنا ميقوان (ميكويند) ومن عربى نوميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونو جديد وميدانم نعرف وانما اراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا انه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف الا العربى الجديد فظن الفتى ان الامر على ما قاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ فى اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم تسليماً وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه اذ ذاك لكنى حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسى فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الى ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم)

وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخى فوجدنا أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الاخى فقال لى نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربى فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربى الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخى حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربى لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطانى فارسا من أصحابه وتوجه معنا الى كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الياء وضم النون) وهى بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهى من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالى العنب ولا يزدرع بها الا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت اننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارسا غيره ليوصلنا الى مدينة مطرنى وقد وقع فى تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى ان وصلنا فى نصف النهار الى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطونى شيأ من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فأخذ قوسا لبعض أصحابى ومضى غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى ان بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسى ومن معى وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنالك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لى فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت فى نفسى اذا سلمت لعلى أحتال فى سلامة أصحابى فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبورا فظهر لى منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقنى الله تعالى الى باب دار فرأيت عليه شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار الى بالدخول فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بينى وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابى وأشرت اليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معى

الى أصحابي وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرنى عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مدّ) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربى فسررت برؤيته وطلبت منه ان يدلنا على مربط للدواب بالكراء فقال أما ربطها فى منزل فلا يتأتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل عليها الدواب ولكنى أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب

(حكاية)

وكان من غريب ما اتفق لنا انى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب وبعثت أحدهم يشترى السمن فأتى أحدهما بالتبن وأتى الآخر دون شئ وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار الينا بالوقوف وكلم ولدا له فدفعنا له الدراهم فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمى عندهم رياغ ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه ان يسافر معنا الى قصطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوبا مصريا من ثيابى وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيئ الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لى انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كان نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا نقول له فى آخر النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه مات لنا فرس فى بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئا وأعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له وأعطيناها احسانا فى خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى

مدينة

مدينة بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا وادياً يظهر فى رأى العين صغيراً فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعاً وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيراً من أفراسهم فأردفتها وأخذت فى جواز الوادى فلما توسطته وقع بى الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة فى زواياهم أيام الشتاء أبداً يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية موقداً للنار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاوية ويسمونها البخارى وأحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى فى قوله فى التورية وتذكرته بذكر البخيرى (بسيط)

ان البخيرى مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب

لو شئتم انه يمسى أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابى ولبست ثياباً سواها واصطليت بالنار وأتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد ايثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالاً بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال رضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردى بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مد ولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد برداً وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

(ذكر سلطانها)

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا بزاوية منها ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقى الحنبلى وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فأعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألنى عن حالى وعن مقدمى وعمن لقيته من السلاطين فأخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهى مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة

فيها حسنة وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفى المذهب ودعانا أميرهذه البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قصطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسألنى عن اسفارى وحالى فأجبته عن ذلك وأجلسنى الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة و واو ونون مكسور و ياء آخر الحروف) وهى من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء وتارة فى الارض بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها وأقنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشترى طابق اللحم الغنمى السمين بدرهمين ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا اليوم ونحن عشرة ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشترى جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد وذلك أوان البرد الشديد ولم أرفى البلاد مدينة أرخص أسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتى المدرّس تاج الدين السلطانيوكى من كبار العلماء قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرّس صدر الدين سليمان الفنيكى من أهل فنيكة من بلاد الروم وأضافنى بمدرسته التى بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره فأجلسه بعض خدّامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمنى بالعربى الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لى وانصرفت

(ذكر سلطان قصطمونية)

وهو السلطان المكرم سليمان پادشاه (واسمه بباء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى الى جانبه وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بانزالى على قرب منه واعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلفا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذ لى فى قرية من قرى المدينة

المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام نتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب اومسافر من الاكل ويجلس فى أوّل النهار جلوسا خاصا ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو أخو السلطان وأصحابه وخدّامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدّامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القرّاء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدى السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدى أخى السلطان فاذا تم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدى ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتى ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه وعمه واقف فى انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدّم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا فى الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شئ يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الاخية ويعرف بنظام الدين من اهل قصطمونية ووقف عليها قرية

ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهى جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخى چلبى وهى خارج باب البحر ومن هنالك يصعد الى جبل داخل فى البحر كميناسبنة فيه البساتين والمزارع والمياه وأكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومى وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة وملك بعده ابنه غازى چلبى فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازى چلبى المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء وفى قوة السباحة وكان يسافر فى الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان للعدو فخرقها وأسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون انه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه على ان أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشئ يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لى بما فى الشكارة فسألت من كان معى فأخبرنى انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق

(حكاية)

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مسبلى أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب

مالك

مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك فأخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة فى نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه وأكلناه وانصرف الخديم اليه وأعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا الينا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت فى جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضى والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهى مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر فى البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فأمرته ان يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتانى بالطارمة فقال لى استودعكم الله ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التى خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى يسمى الكرش فأردنا دخوله فأشار الينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك اجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قاربناه قلت لصاحب المركب أريد ان أنزل هاهنا فانزلنى بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يقد فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال هذه صورة النبى على فعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه فى المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا ثنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونها التزك (بالزاى المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها فى أطراف ثيابهم ولا يسافر فى هذه الصحراء الا فى العجل وهى مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة فى بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذا المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه

الصحراء من الطائفة المعروفة بقبجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفا مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدمدير ونزلنا منها بمسجد المسلمين

(حكاية)

ولما نزلنا بهذا المسجد أقنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولما أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا الا خيرا ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الى مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب مابين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد اوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومه ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومه وميم مضمومة وواو ورا) وكان أحد خدام هذا الامير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الي مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة امره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت على السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

)*

(ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد)

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسي باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب احدها خادم العربة وسرنا في صحبة الامير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلودمور وصاربك وسافر أيضا معه في هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف ان يكون بين يدي الامير في مجلسه فاذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام بسم الله واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له في المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعي ليلا ونهارا ولا يعلف احد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة احكامهم في السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شئ عندهم شبه الآنلي يسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقي وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون

عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة
وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخانى وهو عجين يقطعونه
قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب
وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد
حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان فأحضرت لحوم الخيل وهى أكثر ما يأكلون
من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق
حلواء صنعها بعض أصحابى فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك
وأخبرنى الامير تلكتمور ان أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو
أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعا فأبى وقال لو قتلتنى ما أكلتها ولما
خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتمور فى موضع يعرف بسججان فبعث الى أن أحضر
عنده فركبت اليه وكان لى فرس معد لركوبى يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته
وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف
صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلى الامير فى مجلسه وأنا اليه فقلت له ما هذا
فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه
فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون
هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزة (بضم الباء الموحدة وواو مد وزاى مفتوح) وانما قال لى
الشيخ مظفر الدين ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الاعجمية فظننت انه يقول ماء الدهن وبعد
مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض
الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحتى وقدمنى
أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا الى أمير أزاق يعلمه أنى أريد القدوم على الملك ويحضه
على اكرامى وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى
مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهى على ساحل البحر حسنة العمارة
يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخى بجقجى وهو من العظماء يطعم
الوارد والصادر ولما وصل كتاب الامير تلكتمور الى أمير ازاق وهو محمد خواجه الخوارزمى خرج
الى استقبالى ومعه القاضى والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه
ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما
السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمى برجب النهرملكى نسبة الى قرية بالعراق فأضافنا
بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه

ومعه

ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافات وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها
من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا
أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقاق
الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله ان قدمني أمامه ليرى ذلك الامير منزلتي عنده
ثم وصلنا الى الخباء الاولى وهي المعدة لجلوسه وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير
مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس
فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن
يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد وأولاده في
الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة وبعد الفراغ
من الطعام قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين
يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم
بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون
بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على
ذلك الى العشي وكلما أردت الخروج منعني الامير ثم جاءوا بكسوة للامير وكسى لولديه وأخيه
وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولاخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير
من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها
خمسون درهما أوستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي
التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون
للتركي منهم آلاف منها ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون
في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة الى عود رقيق في طول
الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له
دون ذلك وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها
لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم
عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشي ويركب أحدها وبيده عصى طويلة فيها حبل
فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه
فيركبه ويترك الآخر للرعي واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض
السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة
دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا

فيما تقدّم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك وأمر ان يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لانهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرّعون الخيل وانما يبتغون قوّة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوّج والعزب وعيشهم من الفتوح ولاهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء فانهنّ يكثرن الصدقة ويتحرّين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقرّاء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطى فرسا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البرّ ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم وهنّ أعلى شأنا من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أوّل رؤيتي لهنّ عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري

يرفعنّ

يرفعن أذيالها ولا ثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الى جانبه ودار بها جواريها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه فى قدح وجلست على ركبتيها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاها كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الامراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهنّ واحداهنّ تكون فى العربة والخيل تجرّها وبين يديها الثلاث والاربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفى أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهى بادية الوجه لان نساء الاتراك لايحتجبن وتأتى احداهنّ على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهنّ زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حارّ يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أوّل يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الى الموضع الذى رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتى على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الاردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرّها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهى خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتازت بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهنّ وهى بنت الامير عيسى بك وسنذكرها رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا علىّ وبلغوا اسلامها الىّ وهى واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابى ومع معرّف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل فى جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة

(ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان)

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمزة وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوّة كبير الشان رفيع المكان قاهر

لاعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد فى جهادهم و بلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو واحد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر فى محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى محلتها فاذا أراد ان يكون عند واحدة منهنّ بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله فى قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته ان يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهى من قضبان خشب مكسوّة بصفائح الذهب وفى وسطها سرير من خشب مكسوّ بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلى وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجى و يقف أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثانى جان بك وتجلس بين يديه ابنته ايت كجك واذا أتت احداهنّ قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلى وهى الملكة واحظاهنّ عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتى بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه و يقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه واخوته وأقاربه و يقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار و يقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام الامثل فالامثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهنّ فيتبعنها الى محلتها فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربة نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وامام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهنّ فى انصرافها ومجيئها وكان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك الذى يقع ذكره فيما بعد وفى

الغد

الغد من يوم وصولى دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وافطرنا بحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضى حمزة فى شأنى بالخير وأشاروا على السلطان باكرامى وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وزوايا التمز وتلك كرامتهم وبعد ذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

(ذكر الخواتين وترتيبهن)

وكل خاتون منهن تركب فى عربة وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه المنوت (الملوطة) التى يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفى أعلى دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة فى كل عربة الثلاث والاربع من الجوارى الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى التى ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

(ذكر الخاتون الكبرى)

والخاتون الكبرى هي الملكة أم ولدى السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته ايت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلى (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي احظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والا فهي أبخل الخواتين وحدثني من اعتمده من العارفين باخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كانها بكر وذكر لى غيره انها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرني ان بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة ولم يقع بيدى ذلك ولا عرفت له حقيقة وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا يسمون البنات وبين ايديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتى بالقمز فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتني اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لاجل عظمتها عند الملك

(ذكر الخاتون الثانية التي تلى الملكة)

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وفتح الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهي بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت بالقمز فأحضر وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها

*(

(ذكر الخاتون الثالثة)*

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مدّ ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

(ذكر الخاتون الرابعة)

واسمها اردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) واردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوّج ببنت السلطان ايت كجك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الىّ لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدّمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا أيضا الى أخت زوجة الامير علي بن أرزق

(ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك)

واسمها ايت كجك وايت (بكسر الهمزة وياء مدّ وتاء مثناة وكجك بضم الكاف وضم الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان ايت هو الكلب وكجك هو الصغير وقد قدّمنا ان الترك يسمون بالفأل كما تفعل العرب وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقراء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرّف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدّامه وأدخلوه الى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطي وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن

الاخـــلاق مالم نره مـن سـواهـا واجزلت الاحسـان وأفضـلت جزاهـا الله خـــيرا

(ذكر ولدى السلطان)

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التى تقدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوّة مكسورة و ياء مدّ و نون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمى امير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له و ولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القرامى والامام المقرئ حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

(ذكر سفرى الى مدينة بلغار)

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لارى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلنى اليها فبعث معى من أوصلنى اليها ورد نى اليه و وصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء فى اثناء افطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا

(ذكر أرض الظلمة)

وكنت أردت الدخول الى ارض الظلمة والدخول اليها من بلغار و بينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الادمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت اقدامها فى الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدّم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم والا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به

من

من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعنى أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فدونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفروتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذى بعثه السلطان فى صحبتى فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

(ذكر ترتيبهم فى العيد)

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان فى عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هى الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد فى عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين الساءلى ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولى عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضى شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولى عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان واقاربه ونصبت الكراسى للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمى لكل أمير طومان طبلة مختصة به وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتى الى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الارض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والاخرى قائمة ثم يؤتى بفرس

مسرج مجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الى كرسيه وهنالك يركبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الملكة إيت كجك وعن يساره ابنه الثانى وبين يديه الخواتين الاربع فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدى السلطان على اقدامهم الى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو افراج وقد نصبت هنالك باركة (بارگاه) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفى أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب فى وسط الباركة السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كجك ومعها الخاتون اردوجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تن بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثانى ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها أبناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدى كل أمير مائدة ويأتى الباورجى وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ويكون لكل أمير باورجى فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجى اللحم قطعا صغارا ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولى العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم لجميعهن ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له

ثم

ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له ثم يقوم الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة كبيرة ايضا ازاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الاتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الاكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا الى بعربة منها فأعطيتها الجيراني من الاتراك ثم آتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل انه لا يأتي لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى البارگة فبقي على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح التاء المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر اتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من احمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي فلاطفته وقلت له انما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فأذن لي وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وافراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها الصوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني وأركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

(ذكر سفرى الى القسطنطينية)

وسافرنا فى العاشر من شوّال فى صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولى عهده وسافر سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة فى خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدّامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجوارى نحو مائتين أكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفى فرس لجرّها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرّها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندى وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة اكك وهى (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهى سبائك الفضة التى بها يباع ويشترى فى هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواق ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرداق (وضبط اسمها (بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهى من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شرّ قتلة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقى والقمز وألبان البقر والغنم والسفر فى هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الا أنهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك وبينها وبين أوّل عمالة الروم ثمانية عشر يوما فى برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزوّد لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها فى أيام البرد فلم نحتج الى كثير من الماء

والاتراك

والاتراك يرفعون الالبان فى القرب و يخلطونها بالدوقى المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فأتيت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث الىّ بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لا اذبحها وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لى نحو خمسين فرسا وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها ساروجة الرومى ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحى ومعشى ومارأينا الاخيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو ومدّ ولام مكسورو ياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصل الى هذا الحصن كفالى نقوله الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة وبعثت الىّ الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والاثقال فامر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور فى الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرنى بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلى الا بعض الاتراك كان يصلى معنا وتغيرت البواطن لدخولنا فى بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالى باكرامى ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلى ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المدّ فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المدّ فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائية ويابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض الا فى القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مدّ وكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها

حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها و يدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس شاكين فى السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدرع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح فى طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على افواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدى عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات وركبت الخاتون فى مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفى يديه ورجليه خلاخل الذهب وفى عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤهما فى بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء واولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات انهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولى العهد فى ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا ان الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه اخته فى مثل زيها الاول وترجلا جميعا وأوتى بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصى طوال فى أعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان

الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسى وذكر لى انها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافرى فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الاول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا بالاذن فأقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهى بين يدى والدها فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا وعين لنا دارا بعقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك فى الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان

(ذكر سلطان القسطنطينية)

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة فى الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفى اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الى الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدى وأدخلنى الى القصر فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون معى سكين وقال لى القائد تلك عادة لهم لابدّ من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشونى قام الموكل بالباب فأخذ بيدى وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى واثنان من ورائى فدخلوا بى الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفى وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمنى اولئك الاربعة اليهم فأمسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بى وكان أحدهم يهوديا فقال لى بالعربى لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلى من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته ام هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون

وأختها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فأشار الى تقبيل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعى ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الى ان أجلس فلم افعل وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن ذلك كله واليهودى يترجم بينى وبينه فأعجبه كلامى وقال لاولاده أكرموا هذا الرجل وآمنوه ثم خلع على خلعة وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه وهى علامة الامان وطلبت منه ان يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها فى بلادى فعين لى ذلك ومن العوائد عندهم ان الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به فى أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بى فى الاسواق

(ذكر المدينة)

وهى متناهية فى الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادى سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر فى القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) واحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هى فى وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثانى منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح فى قربه من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة فى كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابة وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار

وأما

وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيها

(ذكر الكنيسة العظمى)

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم اشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وألف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرّش من الخشب مرتفع عليه دوالي العنب وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدّام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمرّ بسوق العطارين والآخر يمرّ بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الاعظم عندهم الذي يزعمون انه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لي ان عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يؤتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأتي اليها البابة مرة في السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخوله المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

(ذكر المانستارات بقسطنطينية)

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا ان نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف بهما بيوت واحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائت وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط احسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والامراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

(ذكر الملك المترهب جرجيس)

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماشيا على قدميه وعليه المسوح

وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفي عنقه سبحة فلما رآه الرومي نزل وقال لي انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عني ثم وقف وبعث عني فجئت اليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السراكنو يعني المسلم أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم أرسل يدي فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

(ذكر قاضي القسطنطينية)

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآني القاضي فبعث الي أحد اعوانه فسأل الرومي الذي معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الي احد أصحابه وهم يسمون القاضي النجشي كفالي فقال لي النجشي كفالي يدعوك فصعدت اليه الى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الي وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لي لا بد لك ان تأتي الى داري فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

(ذكر الانصراف عن القسطنطينية)

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الاتراك انها على دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا منها الاذن في العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم اميرا يسمى سارو جة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت عني فاعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البربرة وليس بالطيب والفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود انواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي سارو جة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامي عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا

صحبته سار وجهته فكان يكرمني حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا اصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل سار وجه معنا الى مدينة باباسلطوق وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف الى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احداهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب وكنت أتوضأ بالماء الحار بقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فاحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان اوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحين وألف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فاعلمناه وأمر باجراء النفقة علينا وانزالنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تغص باهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا الآخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لاخراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير جدا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى ألطون طاش وألطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو ومدّ ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي احد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفس

النفس شديد التواضع شديد السطوة على اهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائرا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضدّ ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم وأكرمني جزاه الله خيرا وبعث الى بغلام تركي وشاهدت له بركة

(كرامة له)

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لى اقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لى لا بدّ لك من الاقامة فعزمت على السفر فأبق لى غلام أقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الى فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجرّ العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة وهي على شاطئ نهر كبير ذخار يقال له الوصو (بضم الهمزة واللام وواو ومدّ وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجرّ العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل ومعناه الوالد أضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادّا لا ننزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو يأكل في عربته حال السير وكان لى في عربتي ثلاث من الجواري ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة اعشابها والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى بعد ان يسمن والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا الى خوارزم وهي أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها

يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام فى موضع يقال له الشور (بفتح الشين المعجم واسكان الواو) لم استطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لى بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة من طاعة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذى عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلوة وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامى يعرف بالصهيونى نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أر فى بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب فى الغرباء ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم وهى ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بحضر الجماعة وفى كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التى من الجنة وهو يجمد فى أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا ويسافر فيه فى أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهى مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخها المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابى الى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى فبعث الىّ نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد اليه ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم علىّ وهو فتى السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء وهو الشديد فى أحكامه القوى فى ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضى قال لى ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يأتى وسيأتى اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح اتى الينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين

المقدسى

المقدسي ومولانا رضي الدين يحيى ومولانا فضل الله الرضوي ومولانا جلال الدين العمادي ومولانا شمس الدين السنجري امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الى مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفي كل طاق منها أواني الفضة المموّهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلودمور متزوّج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم

(وأمير خوارزم)

هو الامير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مدّ وراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوّج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما عليّ كما ذكرته قال لي ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملوّن وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيها وعن مدينة القسطنطينية فاعلمته بذلك كله ثم أوتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلواء ثم أوتي بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الامير ان يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معدّ له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه

ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجى) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل فى الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشا

(حكاية ومكرمة لهذا القاضى والامير)

صليت فى بعض أيام الجمع على عادتى بمسجد القاضى أبى حفص فقال لى ان الامير أمر لك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال افعل ذلك وقد أمر لك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة امامه شمس الدين السنجرى فى خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربى ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته فى ذهابى الى المسجد فأعطيت ثمنه الامن تلك الالف وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالى فى الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندى خيل كثيرة لكنى كنت افضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقى عندى الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالى وبعثت الى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضى مائة دينار دراهم وصنعت لى اختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الى بفروة سمور وفرس جيد وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

(حكاية)

ولما انفصلت من الدعوة التى صنعت لى هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لى بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت علىّ فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت أدركنى بعض الناس وقال لى ان المرأة التى سلمت عليك هى الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان منى لعدم معرفتى بها

*(

(ذكر بطيخ خوارزم)

وبطيخ خوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ اصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد وييبس فى الشمس ويجعل فى القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقى ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتى بدهلى من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أوتى اليه بشئ منه بعث الى به لما يعلم من محبتى فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

(حكاية)

كان قد صحبنى من مدينة السرا الى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى على بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشترى لى الثياب وسواها فكان يشترى لى الثوب بعشرة دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبنى بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله وأنا لا علم لى بفعله الى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد اسلفنى دنانير فلما وصل الى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت ان أحسن بعده اليه مكافأة لافعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا يفعل وأردت أن أحسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معى الى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين فأخذ فى السفر معهم فقلت له فى ذلك فقال هؤلاء أهل بلدى يعودون الى أهلى وأقاربى ويذكرون انى سافرت الى أرض الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا افعل ذلك وسافر معهم الى الصين فبلغنى بعد وأنا بأرض الهند انه لما بلغ الى مدينة المالق وهى آخر البلاد التى من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه فى فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيأ بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن الذى كان له بالفندق فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فانى أنا فعلت ذلك بنفسى ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى لى عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يختنق

نفسه وكان فى أجله تأخير فتذكر صاحباله من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلى بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها الاجل البرد ودخلنا البرية التى بين خوارزم و بخارى وهى مسيرة ثمانية عشر يوما فى رمال لاعمارة بها الابلدة واحدة فودّعت الامير قطلودمور وخلع علىّ خلعة وخلع على القاضى أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعى وسرنا أربعة أيام و وصلنا الى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها و يزلقون عليها وسمع بقدومى قاضى الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضى خوارزم فجاء الى مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقى ثم عرض علىّ القاضى الوصول الى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغى له أن يزار وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتى به ففعلوا ذلك وأتى الامير بعد ساعة فى أصحابه وخدّامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء و وجوه العساكر وسواهم و وقف الشعراء يمدحونه وأعطانى كسوة وفرسا جيدا وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفى تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء و وصلنا بعد ذلك الى بلدة و بكنة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار و بساتين وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين (المهملة وتشديد اللام) فييبسونه و يجلبه الناس الى الهند والصين و يجعل عليه الماء و يشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا و وصلنا الى مدينة بخارى التى ينسب اليها امام المحدّثين أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكيز التترى جدّ ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لاتقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيأ من العلم ولا من له عناية به

(ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها)

كان تنكيزخان حدّادا بأرض الخطا وكان له كرم نفس وقوة و بسطة فى الجسم وكان يجمع الناس و يطعمهم ثم صارت له جماعة فقدّموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدّت

شوكته

شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وماوراء النهر له قوّة عظيمة وشوكة فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهى آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستأذنه ما يفعل فى أمرهم فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردّهم الى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا فائلا وتدبيرا سيئا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر ان أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيأ فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى اطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمدّ ملكه جلال الدين فأمدّه بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة أطرار بالسيف فقتل الرجال وسبى الذرارى وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الاسلام مثلها وآل الامر الى أن تملك تنكيز ما وراء النهر وخرّب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى الباميان • (الباميان) فتملكها وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون فى بلخ وفى ماوراء النهر فكرّ عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هى التى تسمى اليوم ترمذ وقتل أهل الباميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى رحمه الله

(قال ابن جزى) أخبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لى هلك فى فتنة التتر بالعراق اربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيرى وغير ذلك وأشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزى وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا

عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى وأضافنى هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هرات وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر الامام العالم أبى عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع منى فى جملة ما ضاع لى لما سلبنى كفار الهند فى البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التى ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبى وهى صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لاميرها وكان عندى جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها فاتفق انها كانت فى المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهى معهم والزاد وغيره من أسبابى وأقمت أنا حتى ارتحل نهارا مع بعض من معى فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان السلطان غائبا عن المحلة فى الصيد فاجتمعت بنائبه الامير تقبغا فأنزلنى بقرب مسجده وأعطانى خرقة (خركاه) وهى شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية فى تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولودا وأخبرونى انه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرنى بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجوارى فسألتهن فأخبرننى بذلك وكانت هذه البنت مولودة فى طالع سعد فرأيت كل ما يسرنى ويرضينى منذ ولدت وتوفيت بعد وصولى الى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ حسن صهر السلطان

(ذكر سلطان ما وراء النهر)

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك

الدنيا

الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولى الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطى هذا كافرا وولى بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافرا أيضا لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

(حكاية)

يذكران هذا الملك كبك تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميدانى فقال له انت تقول ان الله ذكر كل شئ فى كتابه العزيز قال نعم فقال أين اسمى فيه فقال هو فى قوله تعالى فى أى صورة ما شاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشى ومعناه بالتركية جيد فأكرمه اكراما كثيرا وزاد فى تعظيم المسلمين

(حكاية)

ومن أحكام كبك ما ذكران امرأة شكت له بأحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات أولاد وكان لها لبن تقوّتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها أنا أوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا أطلبه بشئ فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما أقمت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى فلما صليت ذكر لى بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدّمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى وأعلماه بحالى وقدومى منذ أيام فقال لى بالتركية خش ميسن يخشى ميسن قطلو أيوسن ومعنى خش ميسن فى عافية أنت ومعنى يخشى ميسن جيد أنت ومعنى قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه فى ذلك الحين قباقدسى أخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى ثم بعث عنى فوصلت اليه وهو فى خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسى وأصحابهم وقوف على رؤسهم وبين أيديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم أهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتى آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسوّ بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير

والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغى وآل (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الى أربعتهم حين دخولى ودخلوا معى فسلمت عليه وسألنى وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون فى صلاة العصر وكان اذا أوتى بهدية من زبيب او تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من فى المسجد

(حكاية)

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلى وقال للامام حسام الدين الياغى. ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة براى خدا او براى طرمشيرين اى الصلاة لله اولطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الآخرتين حيث انتهى به القيام وذلك فى الموضع الذى تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لى اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيأ ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباقطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له فى بعض الايام ياسيدى ما هذا القبا الذى أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لى ياولدى ليس هذا القبا لى وانما هو لابنتى فرغبت منه ان يأخذ بعض ثيابى فقال لى عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيأ ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطانى السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطانى فرسين وجملين ولما أردت

وداعه

ودّاعه أدركته فى أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدّا فوالله ماقدرت على
ان أنطق بكلمة لشدّة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطانى يده وانصرفت وبعد سنتين من
وصولى الى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة
للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك
فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة
وضم الزاى) وكان مسلما الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين
ان طرمشيرين خالف أحكام جدّهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الاسلام وقد تقدّم ذكره
وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين
المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة
أحكامه انهم يجتمعون يوما فى السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتى أولاد تنكيز
والامراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير
شيأ من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد
وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان
كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا فى بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين
قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه فأنكروا عليه أشدّ الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه
أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التى توالى الصين والعادة ان
الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار
الملك هى مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من
أمرائه ولم يأمنهم فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهى من عمالته وواليها كبير
أمرائه وصاحب سرّه برنطيه وهذا الامير محب فى الاسلام والمسلمين قد عمر فى عمالته نحو
أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من
الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض
الاتراك من اصحاب ينقى ابن أخيه كبك وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك
المذكور وبقى ابنه ينقى ببلخ فلما أعلمه التركى بخبره قال ما فرّ الا لامر حدث عليه فركب
فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه
ينقى بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الى نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم
تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة
وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء

وياء مدّود ال مهمل) معناه المقطوع ويسمى بذلك لضربة كانت فى عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فير وزالى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الودّ والمكاتبة والمهادات وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادّعى انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذى تعرض بين يديه عساكر الهند واليه أمرها ومقرّه بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فأمر له بالسراجة وهى افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى فى خدمته الى السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو وبعث الى ملك الهند يخبره فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك انا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فانى كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقى أثره وبه أعرفه فاتى اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده واخذ يغمز رجليه وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدمل الذى عالجته هاهو ذا واراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له ياخوند عالم هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح انه هو وهاهنا من قومه نحو أربعين الفا وولده وصهره ارايت ان اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان ياماذركانى وهى شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن اعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاى اغلى واخته ولدى طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه وأخرج بالغد وخافوا أن يهلكوا بسببه فانكروه ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران واهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها ابو اسحاق وأجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولى من الهند الى مدينة شيراز ذكر لى انه باق بها واردت لقاءه ولم أفعل لانه كان فى دار لا يدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابى اسحاق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع)

(رجع الحديث الى بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية واباح للنصارى
واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل بن
السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هرات وهو السلطان حسين ابن السلطان
غياث الدين الغورى فاعلمه بما كان فى نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على ان
يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هرات والترمذ تسعة
أيام فلما سمع امراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدوّ وكان
اول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسينى النسب
فاتاه فى أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه امره وكان من الابطال
وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بوزن فمالت العساكر الى خليل
وأسلموا بوزن وأتوا به أسيرا فقتله خنقا بأوتار القسى وتلك عادة لهم انهم لا يقتلون من كان من
أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم
وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذى جاء به من هرات وقصد بلاد المالق فقدم التتر على
أنفسهم واحدا منهم ولقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمى القتال
وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره فى عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت
لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج الى استيصال من بقى من
التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث
اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر
العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف الى سمرقند وبخارى
ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول
انه أحق بالملك لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المالق
عوضا عنه وأمره ان يقدم عليه فى نفر يسير من اصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير
تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هرات الذى
أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير
والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله
فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغيا عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن
عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأوتى به الى الملك حسين اسيرا فمن عليه بالبقاء وجعله
فى دار وأعطاه جارية واجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع
وأربعين عند خروجى من الهند ولنعد الى ما كنا بسبيله ولما وادعت السلطان طرمشيرين

سافرت الى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو هم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر يأتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك وعلى حافتيه الاشجار ودوالي العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيأ من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر في كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتي ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوي المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفري اليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند.

(حكاية)

ولما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك امر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطى لاصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة ولملك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الامور ومن يرد عليه من الواردين واذا أتى الوارد كتبوا من اي البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شئونه وتصرفاته وما يظهر منه من

فضيلة

فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التى ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير فى السنن وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهى الطيب واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون فى رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى اهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولى الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوندزاده وكتب لى اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها فى كل يوم ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له فى السفر الى بلاد الهند وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعا الى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائى لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بابنتى الوزير خواجه جهان وما جرى فى ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم أجزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادى يوما ونصف يوم فى صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهى خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التى ينسب اليها الياقوت البدخشى والعامة يقولون البلخش وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من احسن مساجد الدنيا وأفسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك

(حكاية)

ذكر لي بعض أهل التاريخ ان مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس يسمى داود بن علي فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فأخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيأ فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذي يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذي يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مختزنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوهستان (قهستان) سبعة أيام وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة واكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هرات وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هرات ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هرات كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

(ذكر سلطان هرات)

وهو السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغورى صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه وكان منتهى امره حصوله أسيرا فى يديه والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين

(حكاية الرافضة)

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرابداران (سربداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا مدينة سبزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشى فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمعوا الى استيصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وامرهم بالعدل فأظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتى ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموها ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هرات وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى يأتى القوم أو يمضون اليهم فيناجزونهم فوقع اجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون

الى ثغور الشام وان أصلهم منه فتجهزوا أجمعون واجتمعوا من اطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهي مسيرة أربع لا يزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم وأكثر شجرها الفستق ومنها يحمل الى أرض العراق وعضدهم اهل مدينة سمنان ونفروا جميعا الى الرافضة وهم مائة وعشرون الفا مابين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفا حتى قتل وقتل اكثرهم واسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتى بالطعام فكان هو وكبراء اصحابه يأكلون وسائرهم يضربون اعناق الاسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهرات رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هرات يحبونه ويرجعون الى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

(حكاية)

ذكر لي انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فأقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

(حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور)

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هرات الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذي مر ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدي لهم الهدايا في كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد الى مدينة هرات وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك اهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بأرض الهند مابين الكفار فاذا اخرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض الهند

الهند ترك ثقب الاذن والكافرات أذانهن مثقوبات فاتفق مرّة ان أميرا من أمراء الترك يسمى تمور الطى سبى امرأة وكلف بها كلفا شديدا فذكرت انها مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هرات وهى فى مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا لاهل هرات ما يركبون ولا ما يحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذى بينهم فأجابوا بأنهم لا يردّون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستى حفيد الشيخ مودود الجستى له بخراسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب فى جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معى الى الترك ليرضوا بذلك ثم أردّه فكان الناس مالوا الى قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبى أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطى وقال له أنت أخذت امرأتى منى وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخرّ ميتا فسقط فى أيدى الشيخ ابى أحمد وانصرف من هنالك الى بلده وردّ الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدّة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه على مدينة هرات فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفرّ أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفى طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكى الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هرات المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعى الملك حسين فى ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون ألفا من دنانير الذهب فى كل سنة (ولنعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هرات الى مدينة الجام وهى متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار وأكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهى تنسب الى الولى العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذى قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهى محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لى من أثق به ان السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه

المدينة وبها زاوية الشيخ فأضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بجملته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق فى المحلة حيوان الا وصلته ضيافته

(حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام)

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما فى منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال فى نفسه ان قلت لاصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكول ومشروب وجعل الخمر فى الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ فى ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها للعبادة لله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبى حامد الغزالى رضى الله عنه وبها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضى وهو على ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهم وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف على وولداه أمير هندو ودولة شاه وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهى مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضى الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التى يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضى للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلم على الرضى ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسى رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهى مدينة الشيخ

الصالح

الصالح قطب الدين حيدر واليه تنتسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضا في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي احدى المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرأون القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك وواسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

(كرامة له)

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير رضي الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني وكان نزولي من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه ومعنى ذلك الاسد الاسود واضافنا بها والي تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه ببستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها مراعي طيبة وأعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة احكام الامير برنطيه وقد قدمنا ان احكام الترك في من سرق فرسا ان يعطي معه تسعة مثله فان لم يجد

ذلك اخذ فيها أولاده فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع
بعد ان يسم كل واحد دوابه فى أفخاذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد
عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الى منزلنا
خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء اخبيتنا فرسين لما عسى أن
يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك و بعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا
فى أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان باثناء الطريق جبلا يقال له
هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت
هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا حتى تمكن دخول الحر
وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدى
الجمال تطأ عليها لئلا تغرق فى الثلج ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم
مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لاحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى ونزلنا
عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن
اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان صعدنا جبل هندوكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل
عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى
بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة
على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى
يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار
الشيخ سعيد المكى وهو معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة
والشين المعجم وألف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) ومعناه
بالتركية الاب وأولياء باللسان العربى فمعناه أبو الاولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد
(بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة
وصاله (ساله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة
وخمسون عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطين
والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزلنا على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقنى
وجسمه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لى انه فى كل مائة سنة
ينبت له الشعر والاسنان وانه رآى أبا رهم الذى قبره بملتان من السند وسألته عن رواية حديث
فأخبرنى بحكايات وشككت فى حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الى پرون (وضبطها بفتح
الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطيه

(وضبط

(وضبط اسمه بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل و ياء آخر الحروف مسكن وهاء) وأحسن الي وأكرمني وكتب الى نوابه بمدينة غزنة في اكرامي وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم) وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا الى مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان ويذكر ان نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الى كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعي جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا احمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادت اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل الا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك في اوائل شهر يوليه وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تتفسخ اعضاؤه وقد ذكرنا ان هذه الريح تهب أيضا في البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوندزاده قاضي ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة

وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فعنى ذلك الاودية الخمسة وهى تصب فى النهر الاعظم وتسقى تلك النواحى وسنذكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا الى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وهاهنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر والحمد لله رب العالمين

تم

الجزء الاول

من رحلة الشيخ المغربى المشهور بابن بطوطه

بطريقة صحيحة مضبوطه

ويليه ان شاء الله تعالى

الجزء الثانى

بمباشرة مصححها ومحرر طبعها ومنقحها على هذا الوجه الجميل

العبد الضئيل ابى السعود أفندى محرر صحيفة وادى النيل

عامله الله سبحانه وتعالى الذى هو خير عميل بكرمه

الجليل فى آخر رجب الفرد سنة ١٢٨٧

من هجرة سيدنا محمد صلى الله

عليه وسلم وعلى آله

وأصحابه من قبل

ومن بعد

م

﴿تذييل﴾

يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو اول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى في ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلد رأينا من المفيد ان نورد هنا عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بقصها وفصها

ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها اشكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ولقيت انا يومئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يغتذي بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول ياأبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول اين الغنم من الفأر وكذا في لحم البقر والابل اذلم يعاين في محبسه الا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشئ فاذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل ربي زدني علما (اه بحروفه)